المكتبة التأصيلية

١٤

التعليق على

عقيدة أهل السنة والجماعة

للشيخ محمد بن صالح العثيمين

المتوفى سنة (١٤٢١هـ)

لفضيلة الشيخ

عبد الله بن محمد العثيمان

حفظه الله تعالى

التعليق على

عقيدة أهل السنة والجماعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك : ٧-١٨٩٦-٠-٩٩٢١-٩٧٨

الموزع الرسمي

ركائز للنشر والتوزيع

دار ركائز للنشر والتوزيع

rakaezkw.com rakaez.kw@gmail.com

@dar_rakaezkw t.me/rakaezkw

+٩٦٥ ٥٠٦٧٤٥٣٣

مشروع العلامة

محمد بن صالح العثيمين

العلمي

دولة الكويت

مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فيسرُّ مشروع العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمي بدولة الكويت أن يقدم لطلبة العلم الكرام **الإصدار الرابع عشر** من «المكتبة التأصيلية»، وهو بعنوان: «**التعليق على عقيدة أهل السنة والجماعة**» للشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، المتوفى سنة (١٤٢١هـ).

حيث قام فضيلة الشيخ **عبد الله بن محمد الغنيمان** ـ حفظه الله ـ بالتعليق على هذا الكتاب من ضمن دروس الدورة العلمية الثامنة، والتي عُقِدتْ في مسجد فهد الزبن بمنطقة «بيان» بعد صلاة الفجر، وذلك بتاريخ ٨ ـ ١١ من شهر رجب سنة ١٤٣٠هـ، الموافق ١ ـ ٤/٧/٢٠٠٩م، فقمنا بتفريغ المادة الصوتية وترتيبها وتنسيقها وتهذيبها بما يناسب إخراج الكتاب.

وكان المنهجُ العامُّ المتبعُ في إخراج هذا الكتاب ما يلي:

١ ـ تفريغ الدروس الصوتية إلى مكتوبة، ثم مقابلة النصِّ المكتوب على المسموع مرةً أخرى.

٢ ـ صياغة النصِّ وتهذيبه، وربطُ المتن بالشرح مع تمييز المتن بلون مختلف.

٣ ـ خدمةُ النصِّ، وذلك بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في

المصحف، والتخريج المختصر للأحاديث المرفوعة، وبيان غريب الألفاظ، وتوثيق الأقوال وعزوها إلى مصادرها.

٤ ـ تدقيق النصِّ من الناحية اللغوية والإملائية، وضبطُ علامات الترقيم، وضبط ما يُشكل من الألفاظ.

وبعد ذلك تكرَّم الشيخ ـ حفظه الله ـ بمراجعة الكتاب، وتعديل ما يلزم تعديله، وإضافة ما يحتاج إلى إضافة وتوضيح، ثم أذِن بطباعته، فجزاه الله خيراً، وشكر سعيه، وبارك في عمُره ووقته، وأجزل له المثوبة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يجعلَ هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ونشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل، وأن يَعمَّ نفعه للإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولـة الكـويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وبعد فسبق أن ألقيت دروسا في دورة الشيخ محمد
بن عثيمين رحمه الله وقد أذنت للقائمين عليها
في طباعة تلك الدروس وفوضت إليهم التصرف
فيها والله ولي الجميع بالتوفيق وصلى الله وسلم على
نبينا. قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان في ٢/١٢/١٤٢٨هـ

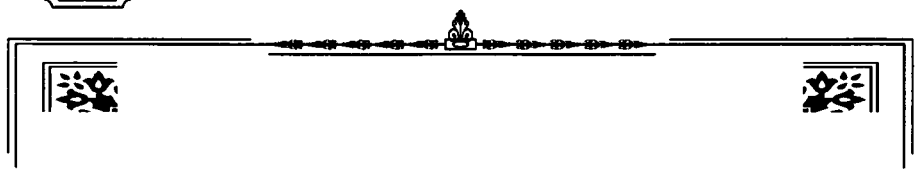

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المَلِكُ الحقُّ المُبين، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ خَاتَمُ النبيين وإمامُ المُتقين، صلى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه، ومَن تَبِعَهم بإحسان إلى يومِ الدين. أما بعد:

فإن اللهَ تعالى أرسل رسولَهُ محمَّدًا ﷺ بالهُدى ودينِ الحقِّ رحمةً للعالمين، وقُدوةً للعالمين/ وحُجَّةً على العباد أجمعين، بيَّنَ به وبما أَنزلَ عليه مِنَ الكتاب والحكمة كلَّ ما فيه صلاح العباد واستقامة أحوالهم في دينهم ودنياهم، مِنَ العقائد الصحيحةِ والأعمالِ القَويمَةِ والأخلاقِ الفاضِلَةِ والآدابِ العاليةِ، فترك ﷺ أُمَّتَهُ على المَحَجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ، فسار على ذلك أمته الذين استجابوا للهِ ورسولِهِ، وهُمْ خِيرةُ الخلق مِنَ الصحابة والتابعين والذين اتَّبعُوهم بإحسان، فقاموا بشريعَتِهِ وتمسَّكُوا بسنَّتِهِ وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ عَقيدَةً وعِبادَةً وخُلُقًا وأَدَبًا، فصاروا هُمُ الطائفةَ الذين لا يَزالُون على الحقِّ ظاهرين، لا يَضُرُّهم مَنْ خَذلَهُم أو خالفهم حتى يأتِيَ أمرُ الله تعالى وهُمْ على ذلك.

ونحن ولله الحمد على آثارهم سَائِرونَ، وبِسيرَتِهِمُ المُؤَيَّدَةِ

. . . . . .

بالكتاب والسُّنَّةِ مُهتَدُونَ، نقول ذلك تحدُّثًا بنعمةِ الله تعالى، وبَيانًا لِمَا يَجِبُ أن يكونَ عليه كلُّ مُؤمنٍ، ونسألُ اللهَ تعالى أن يُثبِّتَنا وإخوانَنا المُسلِمين بالقولِ الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يَهَبَ لنا منه رحمةً إنه هو الوَهَّابُ.

ولأهمية هذا الموضوع وتفَرُّقِ أهواء الخَلْقِ فيه، أحببت أن أكتُبَ على سبيل الاختصار عقيدتنا، عقيدة أهل السُّنَّةِ والجماعة، وهي الإيمانُ بالله وملائكته وكُتبِهِ ورُسلِهِ واليوم الآخر والقدر خيرِهِ وشرِّهِ، سائلًا اللهَ تعالى أن يجعلَ ذلك خالصًا لوجهه، مُوَفِّقًا لمرضاته، نَافِعًا لعباده.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ وباركَ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحابتِهِ ومَن سارَ على نهجِهِ إلى يومِ الدينِ .

أما بعدُ.

فإنَّ هذه العقيدةَ ظاهرةٌ؛ لأنها مبنيَّةٌ على الأسسِ الواضحةِ؛ ولأنها شرحٌ لعقيدةِ المسلمينَ؛ ولأنه إذا ذُكرتِ العقيدةُ مع أدلَّتها وضحتْ وبانتْ، ولا أوْضَحَ وأبْيَنَ من كتابِ اللهِ ﷻ وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ؛ فكلامُ الله ﷻ أنزلهُ شفاءً ورحمةً؛ ولكنهُ شفاءٌ للمؤمنينَ، ومعلومٌ أن أساسَ الإيمانِ وأساسَ العملِ هو أنْ يعقدَ القلبُ عزيمتَهُ على الحقِّ، ولا يهدأَ إلا إذا كانتِ العقيدةُ سليمةً صحيحةً مبنيةً على أدلةٍ تتفقُ مع الفطرةِ. ولا يمكن أن يطمئنَّ الإنسانُ إلا بقولِ اللهِ وقولِ رسولِهِ ﷺ. أما أقوالُ الناسِ فلا تخلو إما أن تكونَ بيانًا لكلامِ اللهِ ومعانيهِ، أو تكونَ أقوالًا تحتاجُ إلى الاستدلالِ عليها، والاستدلالُ يكونُ من كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ.

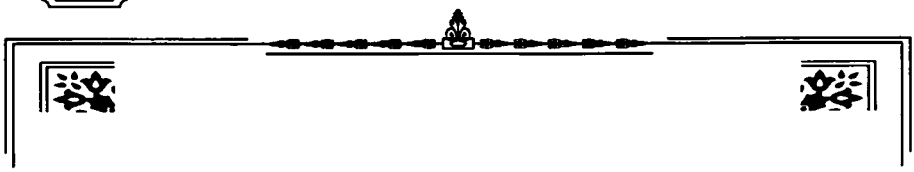

عقيدتنا

عقيدتنا: الإيمانُ باللهِ، .....

قوله: «**عقيدتنا: الإيمان بالله**» بدأ بالإيمانِ باللهِ، والإيمانُ باللهِ يعني الإيمانَ بوجودِهِ، وأنه رقيبٌ شهيدٌ، وأنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وأنه لهُ الخلقُ، ولهُ المُلكُ، وله الأسماءُ الحسنى والصفاتُ العُلَى، فيكونُ الإيمانُ بربوبيتِهِ وألوهيتِهِ، وبأسمائِهِ وصفاتِهِ. ومعلومٌ أنه لا أحد يطلَّعُ على ربِّهِ ﷻ مع ظهورِ الأدلةِ على ذلكَ، وهو ﷻ ليس له نظيرٌ يقاس عليه، فبقيَ أن يكونَ الإيمانُ بالأخبارِ التي يُنزِّلها على رسلِهِ. واللهُ ﷻ في كتابه، في القرآنِ ذَكَرَ لهُ أوصافًا كثيرةً تُخبِرُ عنه، ولا أَصْدَقَ من اللهِ ولا أعْلَمَ منه تعالى وتقدَّس.

فهو يُخبرُ ﷻ وهوَ العليمُ بكلِّ شيءٍ. والذي يطلبُ الحقَّ من غيرِ القرآنِ ضالٌّ ولن يهتديَ؛ لأنَّ القرآنَ لا يجوزُ أن يتسرَّبَ إليه شكٌّ لا من ناحيةِ مجيئِهِ وثبوتِهِ، وأنَّ اللهَ تكلم به، ولا من ناحيةِ دلالتِهِ على معناهُ والوضوحِ والبيانِ؛ قد وصفه تعالى بأنهُ بيِّنٌ، وأنه هدًى، وأنه نورٌ، وأنه شفاءٌ. جاءَ هذا مطلقًا، لم يُبيِّن أنه هدى لكذا ولكذا، ولكنْ أخبرَ أنهُ شفاءٌ ونورٌ وهدًى للذينَ آمنوا، ومعنى هذا أنَّ الذي يؤمنُ به ويقبلهُ لا بد أن يزدادَ في الإيمانِ ولا بد أن يَثبُتَ عنده هذا الحقُّ، أما الذي يأخذه على سبيلِ النظرِ وعلى سبيلِ العرضِ على العقولِ أو غيرِها، فهذا لن يزيده ذلكَ إلا بعدًا كما هو الواقع، حتى من الأذكياءِ الذين عُرفوا

. . . . . .

بذكائهم وبمناظراتهم؛ ولم يستطيعوا أن يهتدوا بذكائهم وعقولِهم، لأنهم جعلوا القرآن محلَّ هوًى، وجعلوا الأصلَ ما يوصفُ بالبراهين العقليةِ.

والواقعُ أنها ليستْ براهينَ، وتسميتُها بالبراهينِ كذبٌ؛ لأنَّ البرهانَ هو الدليلُ الذي يكونُ واضحًا جليًّا، لكن هكذا تصوروا؛ فلهذا بَقوا حائرينَ؛ فهم أصحابُ عقولٍ، ولكنهم ليسوا أذكياءَ؛ بسبب إعراضِهِمْ عن كتابِ اللهِ، وهم أيضًا أصحابُ علومٍ، ولكن ليس عندهم فهْمٌ، بسبب هذا الإعراضِ؛ ولهذا يكونُ أحدُهم حائرًا في النهايةِ في أوضحِ شيء، واللهُ ﷻ لا يريدُ لإنسانٍ سلِمَ من هذه الانحرافاتِ أن يُتعِبَ فكرَهُ ويكدِّه حتى يعرفَ اللهَ؛ فاللهُ ﷻ تعرَّفَ إلى عبادِهِ بخبرِهِ وتعرَّفَ إليهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ التي أنزلها في كتابِهِ.

يذكرون أنهُ قيلَ لأعرابيٍّ يرعى إبِلَهُ: كيفَ عرفتَ رَبَّكَ؟ فتعجَّبَ وقالَ: أعرِفُهُ! أرضٌ ذاتُ فِجَاجٍ، وبحارٌ ذاتُ أمواجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ألا تدلُّ على العالِمِ البصيرِ؛ فالأثرُ يدلُّ على المسيرِ، والبعرةُ تدلُّ على البعيرِ؛ يعني أنَّ الأدلةَ واضحةٌ؛ فالمخلوقاتُ لا بد أن يكونَ لها خالقٌ، وكلُّ أثرٍ لهُ مؤثِّرٌ، وكلُّ هذا من أوضحِ الأشياءِ، ولكنْ معرفةُ اللهِ ﷻ بما تعرَّفَ إلى عبادِهِ، وهي أنواعٌ:

النوعُ الأولُ: ما ذَكَرَ عن نفْسِهِ من أوصافِهِ في أسمائِهِ وأفعالِهِ.

النوعُ الثاني: ما ذكرَهُ عن مخلوقاتِهِ؛ فهذهِ من أوضحِ الأشياءِ وأجلاها؛ ولهذا جعلَ ذلكَ ﷻ دليلًا على وجوبِ معرفتِهِ وعبادتِهِ؛ يقولُ ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وأريدُ الاستدلالَ بهذا على شيئين:

الأولُ: أنه الخالقُ الذي يجبُ أن يُعبَدَ.

. . . . . .

الثاني: أنه يجبُ أن يؤمَنَ بخبرِهِ؛ لأنه أخبرَ عن شيءٍ مستقبَلٍ لهؤلاء؛ وهو أنهم سيُبعثونَ بعد الموتِ، فهم لا يشكُّون في الموتِ، ولكنهم شكُّوا في البعثِ؛ قال: الذي خلقَ السمواتِ الكثيرةَ ألا يستطيعُ أن يخلقكم مرةً أخرى؟ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وإن كان أكثر الناس لا يعرف هذا؛ لأنه مُعْرِضٌ عن ذلكَ.

والعقيدةُ هنا مبناها على الإيمانِ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخرِ، والإيمانِ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وهذا هو الأصلُ، وما يأتي بعدَ ذلكَ تفصيلٌ لهذِهِ الجملةِ، الإيمانُ باللهِ أن نؤمنَ بوجودِهِ، وأنهُ شاهدٌ ورقيبٌ عليكَ، يسمعُ كلامَكَ ويرى تقلُّباتِكَ، ويعلَمُ حالَكَ ولا يخفى عليه شيءٌ، ومع هذا فقد وكَّلَ ملائكةً يسجِّلونَ عليكَ أعمالَكَ؛ لأنَّ هذه الأعمالَ التي تُسجَّلُ سوف تُعرَضُ عليكَ يوم تُبعثُ بين يَدَيِ اللهِ، وهذا كلُّهُ لأجْلِ الإعذارِ ولئلَّا يكونَ للإنسانِ أيُّ عذرٍ؛ لأنَّ اللهَ يحبُّ إقامةَ الحُجَّةِ والإعذارَ إلى الناسِ؛ ولهذا أرسلَ الرسلَ وأنزلَ الكُتبَ، وإلا فيكفي لهذا كونُهُ الخالقَ المدبرَ الذي بيدِهِ كلُّ شيءٍ.

ولهذا لما ذَكَرَ اللهُ ﷻ نهايةَ العباد والقضاءَ بينهم، الملائكةِ والبشرِ والجنِّ وغيرِهم قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]، هذا بعدما ذكرَ ﷻ النفخَ في الصُّورِ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٧١].

ثم ذَكَرَ أن المؤمنينَ يساقُونَ أيضًا إلى الجنةِ زُمَرًا، ثم ختَمَ ذلكَ بقولِهِ:

.....

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]، قُضيَ بينهم، أولًا قضى بينَ الجنِّ والإنسِ وقسَّمهم إلى فريقٍ يذهبُ إلى النارِ، وآخَرَ يذهبُ إلى الجنةِ، ثم ذكرَ الملائكةَ وأخبرَ أنه قُضي بينهم أيضًا ثم قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والفعل يدلُّ على العمومِ؛ يعني كلَّ الخلقِ من الملائكةِ وأهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ قالوا هذا؛ قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن هذا الذي يستحقه ﷻ، وليس لأحدٍ على اللهِ حُجَّةٌ في هذا.

فهوَ المحمودُ ﷻ على حُكْمِهِ وقضائِهِ وجزائِهِ، كما أنه المحمودُ على فعلِهِ وخَلْقِهِ وابتدائِهِ الخلقَ، وذكرَ هذا وذاك، قال ﷻ في المبدأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]؛ يعني معَ هذا الوضوحِ والجلاءِ عدَلَ الكفارُ به غيره من المخلوقاتِ، وعدولُهم به غيرَه شركٌ؛ أنهم يشركون معه مخلوقًا ضعيفًا يجعلون له ما يجب أن يكون خالصًا للهِ ﷻ فهذا واضحٌ لكلِّ من عنده عقلٌ وتأمُّلٌ، ولكنْ كتابُ اللهِ ينبهُ العقولَ على هذهِ الأمورِ ويبيِّنها، فإذا نُبه العقلُ على الشيءِ المستقرِّ الذي أدلَّته محيطةٌ به من جميعِ الجوانبِ استقرتِ العقيدةُ في القلبِ وأصبحتْ لا تَقْبَلُ الشكَّ؛ فلهذا سُميتْ عقيدةً؛ يعني أنَّ القلبَ عقَدَ تصميمَهُ وعزمَهُ عليها.

والسلفُ يختارونَ كلمةَ التوحيدِ على كلمةِ العقيدةِ، لماذا؟ لأنَّ العقيدةَ تكونُ حقًّا وتكونُ باطلًا؛ لأنها تُطلق على كل ما عقده القلب وجعله علمًا، وهذا لا يلزم أن يكون حقًّا؛ فقد يكون باطلًا. سمعنا عن الذين يعبدون الرَّغيفَ ويعبدون الترابَ ويعبدون الأمواتَ أنهم يصرونَ على هذا ويجادلون دونه، فمثلًا الذين يعبدون العدم ويعبدونَ لا شيءَ يصممون عليه ويجادلون دونه، فالعقيدةُ هي ما عقدَ عليه القلبُ؛ ولهذا

وملائكتِهِ، .....

تجدُ السلفَ في كتبهم يقولون: كتابُ التوحيدِ؛ كما قالَ البخاريُّ: كتابُ التوحيدِ والردِّ على الجهميةِ، في بعضِ النسخِ، وكلُّ أهلِ العلمِ هكذا يقولون: التوحيدِ؛ لأنَّ العقيدةَ إذا لم تكن توحيدًا فهي شركٌ أو كفرٌ.

وعنْ عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ قال: عقيدتُنا الإيمانُ باللهِ وبوجودِهِ، وبأنَّ له الأسماءَ الحسنى والصفاتِ العلى، وبأنَّ العبادةَ يجبُ أن تكونَ له وحدَهُ، وبأن وعْدَهُ حقٌّ وسيقعُ جزاؤهُ الذي وعَدَ به، وأنَّ كلَّ ما أمرَ به يجبُ أن يُفعلَ مع القدرةِ والاستطاعةِ، وأنَّ رسله الذين أرسلَهم جاؤوا لبيانِ أمرِهِ وبيانِ ما يجبُ أن يعتقدوه .

قوله: «**وملائكته**» ثم الإيمانُ بالملائكةِ؛ وذلكَ لأنَّ الملائكةَ غيرُ مشاهَدِينَ، وإنما همْ عبيدٌ للهِ ﷻ ورسلٌ له، كلَّفهم بوظائفَ معيَّنةٍ تكونُ هي عبادتَهم مع التسبيحِ لله ﷻ دائمًا بحيثُ إنهم لا يفتُرُونَ.

وأصلُ كلمةِ «الملائكةِ» مأخوذٌ من الألوكة التي هي الرسالة، فهمْ رسلٌ وعبادٌ لله، لا نراهم، ولا نسمعهم، ولا نكلمهم؛ وقد اقترحَ الكفارُ أن يكونَ الرسولُ مَلَكًا، وكانوا إذا جاءَ الرسولُ البشري يستنكفونَ أن يكونَ بشرًا من جنسهم، يقترحونَ على اللهِ أن يُنزلَ مَلَكًا، والمَلَكُ غيرُ مرئيٍّ؛ ولهذا قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨]، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، لأنهم لا يستطيعونَ أن يأخذوا عنه إلا إذا كان في صورةِ البشرِ مثلهم، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]؛ يعني يلتبسُ عليهم الأمرُ في هذا، فيقولون بشرٌ وليس ملكًا.

ولما ذكرَ الملائكةَ قال: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]؛ يعني غيرَ مشاهَدِين، وإنما يشاهَدون إذا خرجَ الإنسانُ من هذا العالَمِ إلى عالَمٍ

. . . . . .

آخرَ؛ عالم الآخرة؛ يعني إذا حضرَهُ الموتُ شاهَدَهم، ومشاهدتُهُ لهم دليلٌ على نهاية الحياة الدنيوية، ولهذا في الحديثِ الصحيح: «تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعَايِنْ»[1]؛ يعني الملائكةَ، ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ يعني الروحَ، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ يعني عنْدَهُ محيطينَ به، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، أكثرُ المفسرينَ وأكثرُ العلماءِ يقولون: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة] يعني الملائكةَ التي جاءتْ لقبضِ روحِهِ؛ فهمْ لذلكَ أقربُ إليه من الحاضرينَ؛ ملكُ الموتِ ومن معه منَ الملائكةِ.

كذلكَ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، وجيئ بالضمائرِ المجموعةِ، لأنَّ الملائكةَ جاءتْ بأمرِ الله تنفيذاً لأمرِ اللهِ، فصحَّ أن يصاف الأمر إليه تعالى، وهوَ أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ: إذا كانَ الإنسانُ له من ينفذ أمره، وله عوامُّ وله رسلٌ وله وزراءُ يأتمرونَ بأمْرِهِ وينفذونَهُ يجعلُ أفعالَهم أفعالًا لهُ، ولا يزالُ هذا إلى الآنَ، الملِكُ يقولُ: نحنُ فلانُ أمَرْنَا بكذا وكذا. يأمرُ ثم يُنَفِّذُ لهُ مَنْ يُنَفِّذُ ما أمَرَ بهِ.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني الملائكةَ الذين أحاطوا بهِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وإنْ كانَ يصحُّ أن يقالَ: إنَّ الذي يتوفاهُ هوَ اللهُ تعالى، ولكنْ عُلِمَ أنَّ الذي يتولَّى قبْضَ الروحِ همُ الملائكةُ؛ للنصوصِ الكثيرةِ.

ونؤمنُ بملائكةِ اللهِ ﷻ كما أخبرَنَا اللهُ ﷻ وبوظائفِهم التي أخبر الله عنها، وبالأسماءِ التي ذُكرتْ، ولكنِ الذي سُمِّيَ منهمْ قليلٌ جدًّا، والبقية ذُكرتْ أعمالُهم وأفعالُهم، فمنهم الذينَ يحفُّونَ بالعرشِ، ومنهم حملةُ العرشِ، ومنهم مَنْ وُكِّلَ بالسماءِ والرياحِ والبحارِ والسحابِ

(١) أخرجه أبو حاتم في «الزهد» (٥٤).

وكتبِهِ، ورسلِهِ، .....

وغيرها.

ومنهم الذينَ جعلَهُم اللهُ ﷻ رسلًا إلى مَن يشاء؛ ولهذا جاءَ ذِكْرُهم مجموعًا ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ [المرسلات: ١] ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾ [المرسلات: ٢]، ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ [الصافات: ١]، هم أيضًا يُسبِّحونَ اللهَ لا يَفْتُرُونَ الليلَ والنهارَ، وأمَّا صفةُ خلقِهم فهذه لم تَرِدْ لنا إلا بشيءٍ قليلٍ جدًّا، وأنَّ الذي ذُكِرَ لنا من خَلْقِهِمْ رُبَّمَا لا يؤمِنُ بهِ كثيرٌ من الناسِ لعظمتِهِ، فجبريلُ عليه السلام رآهُ الرسولُ ﷺ على صورتِهِ الحقيقيةِ التي خُلِقَ عليها مرتينِ: مرةً بالأرضِ ومرةً في السماءِ؛ لمَّا رآهُ في الأرضِ رآهُ قد سَدَّ أُفُقَ السماءِ؛ فلمَّا رفَعَ رأسَهُ حينما ناداهُ: يا محمدُ، أنا جبريلُ هالَهُ ذلكَ، فجاءَ إلى أهلِهِ وقال: «دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي»[1] أو قالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»[2] وكلاهما سواءٌ، والمرةُ الثانيةُ فوقَ السماواتِ عند سدرَةِ المنتهى. هذا جبريل، ومن الملائكةِ مَنْ هو أعظمُ منه وأكبرُ، فالمقصودُ أنَّ الملائكةَ هم رُسُلُ اللهِ، خُلِقُوا لعبادتِهِ، ويجبُ أن نؤمِنَ بهم على وَفْقِ ما أخبرَنَا بهِ اللهُ ﷻ.

قوله: «**وكتبه**» وكُتُبُ اللهِ ﷻ كثيرةٌ، أنزَلَها على رسلِهِ، ونحنُ نؤمِنُ بأنَّها هدًى ونورٌ لمَن تَبِعَها وآمَن بها واهتدى بها، وكلُّ رسولٍ أُنْزِلَ عليه بلغتِهِ ولغةِ قومِه، وكلُّها تكلَّم الله بها حقيقةً فهي كلامُه، وسمَّاها كُتُبًا لأنها تُكتَبُ، فهيَ كلامُه ﷻ يُكتب في الكتبِ؛ لئلَّا يفوتَنَا شيءٌ منها، ورسلُ اللهِ يدخلُ فيهم الملائكةُ، ولكنْ المقصود بالرسل هنا: الذينَ جعلَهم رسالةً بينه وبينَ عبادِهِ بَشَرٌ، والرسلُ كثيرونَ، ولكن المذكورُ منهم

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).
(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

واليومِ الآخرِ، والقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ.

بأسمائِهم وأعيانِهم في القرآن خمسةٌ وعشرونَ رسولًا، والبقيةُ لم يُذكَرُوا لنا، قال: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، ثم ذكرَ أنهُ لمَّا أخبَرَ عن بعضِ الرسلِ قال: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، لا يعلمها إلا اللهُ.

وكذلك الإيمانُ بـ«**اليومِ الآخرِ**»، وهو اليومُ الذي لا يأتي بعدَهُ يومٌ، وهذا يُقصدُ به شيئانِ:

أحدهما: اليومُ الذي تخرجُ فيه روحُ الإنسانِ، فهذا آخِرُ يومٍ له، ليسَ بعدَهُ شيءٌ، فهو آخِرٌ بالنسبةِ إليهِ.

الثاني: يومٌ آخِرٌ بالنسبةِ للخلقِ كلِّهم، وهو إذا نُفِخَ في الصورِ النفخةُ الأولى وانتهتِ الدنيا، فلا أيامَ تأتي بعده، فاليومُ الآخِرُ هوَ الآخرةُ وهوَ الذي يكونُ بعدَ الموتِ، والذي يكونُ بعدَ الموتِ أمورٌ كثيرةٌ قصَّ اللهُ ﷻ علينا منها أشياءَ كثيرةً حتى نؤمنَ بها ونستعدَّ لها؛ لأننا سوفَ نعايشها، سوفَ نُجزى بها على أعمالنا فيها، وسمِّيَ «آخِراً» لأنه ليسَ بعدَهُ يومٌ، فالأيامُ تنتهي والليالي، والجنةُ والنارُ ليسَ فيها ليلٌ ونهارٌ، نورُ الجنةِ من نورِ ربِّ العالمينَ، فلا شمسَ، ولكن يعرفونَ مقدارَ اليوم حسابَ النهارِ، وأما النارُ فهيَ ظلامٌ وعذابٌ لا ينقطعُ ولا يقلُّ بل يزدادُ العذابُ، نسألُ اللهَ العافيةَ، إلى ما لا نهايةَ له؛ ولهذا سمِّيَ آخِراً، لا يومَ بعدَهُ، ولا لهُ نهايةٌ، ولا ينقطعُ.

أما «**القدرُ**»، فقد قالَ ﷺ: «وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» القدَرُ من صفاتِ اللهِ، وهوَ مأخوذٌ من التقديرِ، ولا بد أن يسبقَهُ العلمُ، فعِلْمُ اللهِ ﷻ محيطٌ بكلِّ شيءٍ، لا بد أن يسبقَهُ العلمُ أزلًا وأبدًا، فالأزلُ الذي هو بلا مبدأٍ، وصفاتُ اللهِ لا مبدأَ لها؛ لأنهُ هوَ ﷻ ليس لهُ مبدأٌ؛ فهو أولُ

.....

بلا بدايةٍ كما أنهُ آخرٌ بلا نهايةٍ، وقد سبقَت الإشارة إلى هذا كما مر. والقدَرُ عبارةٌ عن علمِ اللهِ وكتابةِ علمِهِ ومشيئتِهِ وخلقِهِ، فالقدرُ مجموعٌ في هذهِ الأمورِ الأربعةِ: علمِ اللهِ وكتابةِ علمهِ بالأشياءِ ثم مشيئتهِ في وقوعِ هذا الشيءِ بلا زيادةٍ ولا نقصٍ على ما عَلِمَهُ، ثم إنهُ هو الخالقُ ليسَ معهُ من يخلقُ ويدبِّرُ تعالى وتقدَّس.

الأمرُ مثلما قالَ الإمامُ أحمدُ لما سُئِلَ عن القدَرِ قالَ: القدرُ هو قدرةُ اللهِ، دخلَ فيهِ العلمُ والكتابةُ والمشيئةُ والخلقُ. وكذَّب بهِ مَن كذَّبَ من الأمةِ ولم يستسيغوهُ بلْ لم تستطِعْ عقولُهم أن تستوعبَهُ وتجمعَ بينهُ وبين الأمرِ الشرعيِّ الدينيِّ قالوا: كيف يقدِّرُ الأشياءَ قبلَ وجودِها وتقعُ بعد تقديرها، ثم يأمرنا بغيرِ ذلكَ؟ هم يفسرونَ كما يفسِّرُ الشيطانُ من بابِ الاعتراضِ وضربِ الأدلةِ بعضِها ببعضٍ، فمَنْ كانَ بهذهِ الصفة أضلَّهُ اللهُ، وقالَ: كيفَ يكلِّفُ أبا لهبٍ بأنْ يُؤْمِنَ بأنه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: ٣] اللهُ ﷻ يكلِّفه بأنْ يؤمِنَ بأنهُ سيصلى النارَ!، هكذا عقيدةٌ خبيثةٌ وكلامٌ خبيثٌ.

فيقالُ لهؤلاءِ: اللهُ عَلَّامُ الغيوبِ، عَلِمَ أنَّ أبا لهبٍ وغيرَهُ إذا أُمِرَ بالإيمانِ لا يؤمِنُ، اللهُ علِمَ أنه يتركُ الإيمانَ بإرادتِهِ وقدرتِهِ، فأخبرَ بعلمِهِ تعالى وتقدَّس، وليسَ أنَّ عِلْمَ اللهِ أرغمَهُ وكلَّفَهُ بأن يكفرَ وأنْ يؤمِنَ بأنهُ كافرٌ وبأنه يصلى النارَ، لكنْ إذا انحرفَ الإنسانُ أو أرادَ الانحرافَ زادَهُ اللهُ انحرافًا وضلالًا وتركَهُ في ضلالِهِ يعمُهُ كما أخبرَ اللهُ ﷻ: أنهم يُتركونَ في ضلالِهِم يعمهون حتى يموتوا وتكونَ آخرتُهم إلى جهنمَ؛ لأنهم خالفوا أمْرَ اللهِ وخالفوا شرْعَهُ.

ثم يقولُ: «**خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» الخيرُ والشرُّ بالنسبةِ للمخلوقِ، أما تقديرُ اللهِ فكلُّهُ خيرٌ، وفعلُهُ كلُّهُ خيرٌ، والشرُّ لا يجوزُ أن يضافَ إلى اللهِ لا

....

اسمًا ولا صفةً تعالى وتقدَّس ولهذا لما جاءَ ذِكْرُ الشرِّ لم يأتِ مضافًا إلى اللهِ في شيءٍ من النصوصِ، والرسولُ يُثني على ربِّهِ ﷻ يقولُ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١) لا نسبةً ولا فعلًا؛ ففعلُ اللهِ كلُّهُ خيرٌ، لكنَّ اللهَ حكَمَ إذا كانَ الإنسانُ كافرًا مُعْرِضًا أن يصيبَهُ الشرُّ وهو العذابُ الذي هو عَدْلٌ بالنسبةِ إلى الله؛ ولهذا نقولُ إنهُ جاءَ ذِكْرُ الشرِّ في كتابِ اللهِ على ثلاثةِ أوجهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنْ يدخلَ في العموماتِ في قولهِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢].

الوجهُ الثاني: أن يحذَفَ فاعلُهُ كما قالَ اللهُ ﷻ على لسانِ مؤمنِ أهلِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: ١٠]، لمَّا ذَكَر الرَّشَدَ جعلهُ من اللهِ، وخليلُ الرحمنِ يقولُ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠]، فأضافَ المرضَ إلى نفسِهِ والشفاءَ إلى اللهِ تعالى وتقدَّس.

الوجه الثالث: أنه يُضافُ إلى المخلوقِ كما قالَ ﷻ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ [الفلق: ٢]، فجعلَ الشرَّ للمخلوقِ، والشرُّ ليسَ في خلقِ اللهِ ولا فعلِ اللهِ، وهوَ ﷻ لا يخرجُ شيءٌ من خلقِهِ.

فعلى هذا نقولُ: الإيمانُ بالقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ بالنسبةِ لمَنِ امتثلَ أمْرَ اللهِ يكونُ خيرًا، كلُّ القدَرِ يكونُ بالنسبةِ إليهِ خيرًا، وإنْ أصابَهُ ألمٌ أو أصابتْهُ مصيبةٌ أو أصابَهُ موتٌ فهوَ يصبرُ على هذا، وتكونُ عاقبتُهُ خيرًا، فهو خيرٌ له، والشرُّ كذلكَ بالنسبةِ للمخلوقِ ولكنَّهُ لا يقعُ إلا عدلًا. ثم بدأَ بالتفصيلِ بهذِهِ الجملةِ وقالَ: «**فَنُؤْمِنُ بِرُبُوبِيَةِ اللهِ**» الربوبيةُ معناها أنه

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

فنؤمن بربوبية اللهِ تعالى، أي بأنه الرَّبُّ الخالقُ المَلِكُ المدبِّرُ لجميع الأمور.

ونؤمن بألوهيَّةِ الله تعالى، أي بأنه الإلهُ الحقُّ، وكلُّ معبودٍ سواهُ باطلٌ.

ربُّ الشيءِ، أوجدَهُ وملَكَهُ تصرَّفَ فيه، فصارَ له الملكُ والتصرُّفُ في إيجادِ الشيءِ وملكِهِ والتصرُّفِ فيهِ، فمعنى الربوبيةِ الخَلْقُ والملكُ والتصرُّفُ، فنؤمنُ أنهُ المالكُ لكلِّ شيءٍ الموجدُ لهُ يتصرَّفُ فيهِ كيفَ يشاءُ، دخلَ فيه التدبيرُ والدقةُ والتفصيلُ وغيرُ ذلك.

قوله: «**ونؤمن بألوهية الله**» الإلهيةُ: أنه هوَ إلهُ كلِّ مخلوقٍ، والإلهُ معناهُ المعبودُ الذي لا يجوزُ أن يُعبدَ غيرُه، ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ هذا لا يقتضي إيمانًا بالقولِ فقط، هذا لا يجزي شيئًا ولا ينفعُ، ولا بد أنْ تظهرَ آثارُ الإيمانِ على جوارحِ الإنسانِ، وإذا لم تظهرْ آثارُهُ فلا بركةَ فيه، كإيمانِ المرجئةِ الذين يقولونَ: الإيمانُ في القلبِ ولا يلزمُ أن يكونَ في الجوارحِ، هذا كفرٌ بالله ﷻ وردٌّ لدينِهِ.

ونؤمن بألوهيته؛ بأنه إلهُنا ومعبودُنا، ليس لنا معبودٌ غيره ﷻ، ولا نتجه بالعبادةِ إلا إليه تعالى وتقدَّس، لهذا قالَ: «**بِأَنَّهُ الإِلَهُ الْحَقُّ**» يعني أنَّ هناكَ آلهةً باطلةً، فالإلهُ الحقُّ معناه أنَّ ما عداهُ آلهةٌ باطلةٌ يجبُ أن يُكْفَرَ بها وتُجْتَنَبَ وتُبْغَضَ وتُكْرَهَ، فنحنُ نكفرُ بكلِّ مألوهٍ يؤلَّهُ في الأرضِ، أو في السماءِ غيرَ اللهِ، ونُبْغِضُ مَنْ يَفْعَلُهُ ونُعاديه، ولا يجتمعُ في قلبِ عبدٍ يؤمنُ باللهِ أنه يحبُّ من يؤلِّهُ غيرَهُ، بل لا بد إذا كانَ هناكَ محبةٌ ومودةٌ أن يزولَ الإيمانُ باللهِ ﷻ، لا يجتمعُ هذا بهذا؛ ولهذا يقولُ ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، لو كانَ أقربَ الأقربينَ إليكَ فلا يجوزُ أن تودَّهُ وتحبَّهُ وأنتَ تؤمنُ باللهِ وهوَ

ونؤمن بأسمائه وصفاته، أي بأن له الأسماءَ الحُسنى والصفاتِ الكاملةَ العُليا.

يكفرُ باللهِ ﷻ.

وكذلكَ منَ الإيمانِ باللهِ «**الإيمانُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ**»، وقد ذكرتُ لكم الفرقَ بينَ الأسماءِ والصفاتِ، وأنَّ الأسماءَ ما دلَّتْ على المسمَّى، كلُّ ما دلَّ على المسمَّى فهوَ اسمٌ، أما الصفةُ فهيَ المعنى الذي يقومُ بالموصوفِ، فالرحمنُ اسمٌ دلَّ على ذاتِ الربِّ ﷻ، والرحمةُ صفةٌ قامتْ بالموصوفِ، اللهُ اسمٌ دلَّ على المسمَّى، والإلهيةُ معنًى يقومُ بذاتِهِ وهو الحبُّ والتألُّهُ وتعلُّقُ القلبِ خوفًا ورجاءً وذلًّا وخضوعًا له، والمعنى يتبعُ ذلكَ، وهكذا فإذًا يكونُ الأصلُ الصفاتِ، والأسماءُ اشتُقَّتْ من الصفاتِ .«**ونؤمنُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وهي توقيفيةٌ**» فلا نأتي نحنُ باسمٍ أو بصفةٍ من عندنا، لا بد أن تكونَ جاءتْ عنِ اللهِ أو عنْ رسولِهِ، وتوقِّيفيةٌ معناها أنَّا نقفُ معها على النصِّ ولا بد.

وهي «**حُسْنَى**»؛ أسماءُ اللهِ حُسْنَى، فإذا جاءَ الاسمُ يحتملُ أن يكونَ حَسَنًا ويحتمل أن لا يكونَ فيه الحسنُ فلا يدخلُ في أسماءِ اللهِ؛ ولهذا لا يوصفُ بأنه الماكرُ والمستهزئُ وما أشبهَ ذلكَ؛ لأنَّ هذه ليستْ من الحسنى، وإنما يُطلَقُ عليه كما أطلقَ على نفسِهِ، ومن الخطأ أن يقولَ قائلٌ: صفةُ المكرِ أو صفةُ الاستهزاءِ، فاللهُ لا يوصفُ بالمكرِ والاستهزاءِ، ولكن نقولُ: الفعلُ ما ذكرَهُ اللهُ فقطْ، تقولُ: هلْ نَصِفُ اللهَ بالاستهزاءِ؟ نقولُ: لا، لا يجوزُ أنْ تقولَ هذا الكلامَ؛ لأنها ليستْ صفةً، فصفاتُ اللهِ ﷻ عُلْيَا لا يدخلُها شيءٌ من التوهمِ أو من الصفاتِ غيرِ الحسنى والعليا والجميلةِ.

وبهذا يتبينُ أنهُ يجبُ أن نقفَ مع أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ التي هي واضحةٌ وجليةٌ، وسمَّى اللهُ ﷻ بها نفسَهُ، أما أفعال المكرِ والكيدِ

ونؤمن بوحدانيته كذلك، أي بأنه لا شريكَ له في ربوبيَّته ولا في أُلوهيته ولا في أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

والاستهزاءِ فتُنسبُ إلى اللهِ كما أطلقها على نفسه على اللفظِ الذي جاءَ ولا نعدوهُ، ولا نسميها صفةً.

قوله: «**ونؤمنُ بوحدانيته**» هذا عَوْدٌ على بدءٍ، نؤمنُ بوحدانيتهِ، بأنهُ واحدٌ في ربوبيتهِ وخلقهِ وإيجادهِ، ليس معهُ مُعِينٌ ولا مشيرٌ ولا مشاركٌ. وحدانيتهُ في إلهيتهِ أنه واحدٌ في العبادةِ يجبُ أن نوحدهُ، وواحدٌ في الأسماءِ والصفاتِ، هذا لا بد منه، وهذا الإيمانُ بالوحدانيةِ؛ لهذا قالَ: «**كذلِكَ**» فيما تقدَّمَ كلِّهِ، «**أي بأنهُ لا شريكَ لهُ في ربوبيتهِ ولا في ألوهيتهِ ولا في أسمائه وصفاته**».

ثم ذكرَ الأدلةَ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، فالربُّ هو المالكُ المتصرفُ في كلِّ شيءٍ ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ دليلٌ على الإلهيةِ، الجزءُ الأولُ منَ الآيةِ دليلٌ على الربوبيةِ والجزءُ الثاني دليلٌ على الإلوهيةِ، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ﴾ يعني أنَّ العبادةَ لا بد فيها من الصبرِ، فتصبر على أنك تعبدُ ربكَ وتلزمُ هذا إلى المماتِ، كما قال ﷻ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] واليقينُ هو الموتُ، ولا بد أن تصبرَ على الأذى في هذا، إذا أوذيت أو حاوَلَ محاوِلٌ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ أن يُشَكِّكَ في هذا الأمرِ ويصدَّ عنه أو يجادلَ، فلا بد من الصبرِ والثباتِ عليه.

وقوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ كلمةُ اصطبرْ تدلُّ على أنهُ يجبُ أن لا تقبلَ ما تأتي به المؤثراتُ بكلِّ ما تستطيعهُ وأنْ تردَّهُ وتصدَّهُ.

وقولُه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ يعني هل يوجدُ من يساميه ويماثلُهُ

ونؤمن بأنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ

ويُناظرهُ تعالى وتقدَّس، فهذا كقولهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وهذا دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى يوصفُ بالإثباتِ والنفي، فنَصِفُهُ بإثباتِ ما أثبتَ لنفسِهِ، وننفي عنه ما نفى عن نفسِهِ، ولكن القاعدة التي جاءتْ في القرآنِ أنَّ الإثباتَ يأتي مُفَصَّلًا؛ أنه عليمٌ، وأنه رحيمٌ، وأنه كريمٌ وهكذا، والنفيَ يأتي مُجْمَلًا ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هذا إجمالٌ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

النفيُ غالبًا يكونُ مُجملًا، وأقولُ غالبًا؛ لأنه قد يكونُ هناكَ سببٌ فيأتي بالتفصيلِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، سبحانهُ أنْ يكونَ له ولدٌ أو صاحبةٌ، فكيف يوجدُ الولدُ بلا زوجةٍ؟ وكيفَ يكونُ له ولدٌ وليسَ له صاحبةٌ، والمقصودُ بالصاحبةِ الزوجةُ، تعالى اللهُ وتقدَّس، هذا؛ لأنَّ الإنسانَ كفورٌ جهولٌ، فيريدُ أنْ يكونَ الإلهُ من المخلوقاتِ مثلِ التي يشاهدها، فإذا جاءَ التفصيلُ في النفي؛ فلأنَّ بعض الناسِ أثبتَ لهُ ذلكَ الذي نُفِيَ بالتفصيلِ، فتعالى اللهُ وتقدَّس، مثلُ نفي أنْ يكونَ معه مشاركٌ، أو نفي الولدِ، أو الصاحبةِ، أو أنْ يكونَ له شريكٌ في المُلكِ، أو شريكٌ في العبادةِ، فهذه تفاصيلُ ولكنِ السببُ أنها أُثْبِتَتْ منْ جهةِ بعضِ الكفرةِ أو كلِّهم.

وقد ذكرَ بعض الآياتِ التي فيها الأسماءُ والصفاتُ، أما استقصاؤها فيطولُ؛ ففيها إثباتُ الأسماءِ والصفاتِ.

وأما قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ..﴾ هذهِ الآيةُ تشتملُ على كثيرٍ من الأسماءِ والصفاتِ؛ فقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ اللهُ اسمٌ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفاتٌ، ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحيُّ اسمٌ والقيومُ اسمٌ، وفي ضمنها الصفاتُ

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

التي أُخِذَتْ منها.

وجاءَ «**الْحَيُّ**» بهذا اللفظِ ليدلَّ على أنَّ الحياةَ تامةٌ كاملةٌ، فإذا كانتْ تامةً لا بد أن يوصفَ بجميعِ صفاتِ الحياةِ الكاملةِ.

و«**القيومُ**» كذلكَ جاءَ، القيومُ يعني الذي له القيامُ التامُّ، ويكونُ ذلكَ في نفسِهِ ولغيرِه، فهو قائمٌ بنفسِهِ بمعنى أنه لا يحتاجُ إلى قيامِ أحدٍ ولا يحتاجُ إلى شيءٍ، ومقيمٌ لغيرِهِ فكل موجودٍ هو الذي أقامه، فهذان الاسمان شَمِلا جميعَ صفاتِ الكمالِ وأسماءِ الكمالِ؛ ولهذا صارتْ هذهِ الآيةُ أعظمَ آيةٍ في كتابِ اللهِ.

ثم قالَ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ هذا منْ مفهومِ قولِهِ: ﴿الْحَيُّ﴾؛ لأنَّ الحيَّ الحياةَ الكاملةَ لا تتطرقُ إليهِ السِّنَةُ، والسِّنَةُ هيَ مبادئُ النومِ، لا النومُ فالنومُ أعظمُ من السِّنَةِ، فكيفَ بالموتِ؟ الموتُ أبعدُ.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني مُلْكًا وإيجادًا وتدبيرًا، فدخل فيهِ كلُّ شيءٍ، صارَ لهُ كلُّ شيءٍ، هذا هو المصرِّفُ والمدبِّرُ لكلِّ شيءٍ، ثم ذكرَ من تمامِ ملكهِ أنه لا أحدَ يجرؤُ أن يشفعَ عندهُ مجردَ الشفاعةِ قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ استفهامُ إنكارٍ، فتضمَّنَ هذا أنَّ الشفاعةَ لا تقعُ من أحدٍ منَ الخلقِ، لا ملكٍ ولا نبيٍّ فضلًا عن غيرهما من الخلقِ إلا إذا أذِنَ، ومعنى أذِنَ أمَرَ، فلا يمكنُ لأحدٍ أن يأتيَ اللهَ فيقولَ: أشفعُ في فلانٍ حتى يقولَ اللهُ ﷻ له: اشفعْ. وهذا من تمامِ ملكِهِ ﷻ؛ لأنَّ لهُ الملكَ كلَّهُ ولا لأحدٍ معهُ أي تصرُّفٍ.

ولكن هذا من يَعْقِلُه؟ لا يعقلُهُ إلا أهلُ التوحيدِ الذين يعرفونَ أسماءَ

.....

اللهِ وصفاتِهِ تعالى، وإلا كيفَ يسوغُ لعاقل قد تميَّزَ عنِ الحيواناتِ وغيرِها أنْ يذهبَ إلى ما هوَ رميمٌ، ثم يسألَه ويقول: اشفعْ لي؟ أو يذهبَ إلى شجرةٍ؟ هذا لو قيلَ: إنه جنونٌ لكان صحيحًا، جنونٌ؛ أي: فقْدٌ للعقلِ؛ ولهذا وصفَ اللهُ ﷻ هؤلاءِ بأنهم لا يعقلونَ، ليسَ لهم عقولٌ تنفعُهم ويهتدونَ بها؛ يعني أنهم أضلُّ من الحيواناتِ؛ ولهذا صارَ مأواهم جهنمَ ولا يليقُ بهم إلا جهنمُ، فهيَ حَسْبُهُم أي: كافيَتُهم عن العذابِ الذي يصيبهم في الدنيا، وإلا فهُمْ يستحقونَ العذابَ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني ما سيأتيهم من الأمورِ المتقدمةِ وما سيفعلونه من الشيء الذي لم يفعلوهُ، فهو عبارةٌ عن علم في المستقبلاتِ كلها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الشيءُ الذي خَلَّفُوهُ، فيعلمُ كلَّ ما مضى وكل ما سيأتي وما في الحالِ، وهو إخبارٌ بإحاطةِ علمِهِ بكلِ شيءٍ تعالى وتقدَّس.

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ علمُهُ الذي هو صفتُهُ أو معلومُهُ الذي هو آثارُ علمِهِ، لا يحيطونَ بشيءٍ منه إلا الشيءَ الذي يُعْلِمُهم إياهُ، أما إذا لم يُعْلِمْهم اللهُ ﷻ فلا عِلْمَ لهم، فهم ناقصونَ، ليس عندهم منَ العلمِ شيءٌ إلا ما علَّمهم ﷻ.

ثم قالَ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعضُ المُحَرِّفِينَ يقولُ: كرسيُّهُ عِلْمُه، فإذا قالَ هذا نقولُ: قد سبقَ ذِكْرُ عِلْمِهِ في الآيةِ، والتكرارُ من عيبِ الكلامِ، وهذا باطلٌ، فالكرسيُّ كما جاءَ أنه مخلوقٌ واسعٌ جدًّا، كبيرٌ أكبرُ من السمواتِ والأرضِ، وهذا معنى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني أنهُ أوسعُ من السمواتِ والأرضِ، والكرسيُّ تحتَ العرشِ، والعرشُ أكبرُ منهُ، والعرشُ ليس فوقَهُ شيءٌ إلا ربُّ العالمينَ، ليسَ فوقه مخلوقٌ.

ونؤمن بأنه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

ونؤمن بأن الله له ملكُ السماوات والأرض: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

ونؤمن بأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: ١١ ـ ١٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ أي: لا يُثْقِلُهُ ولا يَتَبَرَّم بهِ، فحِفْظُ السمواتِ الأرضِ سَهْلٌ ميسورٌ عليه، و﴿حِفْظُهُمَا ۚ﴾ بالتثنية السماواتِ والأرضَ.

وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ العليُّ أي: العلوُّ المطلقُ؛ علوُّ القهرِ، فهو القاهرُ فوقَ خلقِهِ كلِّهم، يقهرهم ويتصرَّفُ فيهم كيفَ يشاءُ، ولكن هذا لا يكونُ إلا لمَنْ يعرفُهُ؛ فعلوُّ قدرِهِ في نفوسِ المؤمنينَ، فلهُ قدرٌ وعَظَمَةٌ تعالى وتقدَّس، وعلوُّ الذاتِ أنه عليٌّ بذاتِهِ على عرشِهِ، وهوَ العليُّ العظيمُ تعالى وتقدَّس، وهكذا بقيةُ الآياتِ التي ذكرَهَا في أسمائِهِ وصفاتِه.

وقولُه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، هذا مثالٌ للنفيِ المُجْمَلِ.

أما قولُهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني أنَّ التصرُّفَ في الخلقِ والإيجادِ له، فالشيءُ الذي يشاؤهُ يُوجِدُهُ، ثم

ونؤمن بأنه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦].

ونؤمن بأنه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

ونؤمن بأن الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

ونؤمن بأنَّ اللهَ يتكلَّمُ بما شاء متى شاء كيف شاء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢].

ونؤمن بأنه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ [لقمان: ٢٧].

ونؤمن بأنَّ كلماتِهِ أتمُّ الكلمات صِدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وحُسنًا في الحديث، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ونؤمن بأن القرآنَ الكريمَ كلامُ الله تعالى، تكلَّمَ به حقًّا، وألقاه إلى جبريل فنزل به جبريل على قلب النبي ﷺ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ

ذكرَ التفاصيلَ في هذا؛ فكلُّ الآياتِ التي ذكرَها تفصيلًا للأسماءِ والصفاتِ لعلَّنا لا نقفُ عندها؛ لأنها واضحةٌ، ولأنها كلَّها في أسمائِه وصفاتِهِ ﷻ وهي الدليلُ على وجوبِ عبادتِهِ وحدَهُ.

ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

ونؤمن بأن الله ﷻ عَلِيٌّ على خلقِهِ بذاته وصفاته لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

ونؤمن بأنه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]. واستواؤه على العرش: عُلُوُّهُ عليه بذاته علوًّا خاصًّا يليقُ بجلاله وعظمته لا يعلمُ كيفيَّتَهُ إلا هو.

ونؤمن بأنَّه تعالى مع خلقه وهو على عرشه، يعلمُ أحوالَهُم، ويسمعُ أقوالَهُم، ويرى أفعالَهُم، ويدبِّرُ أمورَهُم، يرزقُ الفقيرَ ويُجبِرُ الكسيرَ، يُؤتِي المُلكَ مَنْ يشاء، ويَنْزِعُ المُلكَ ممَّن يشاء، ويُعزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء، بيده الخير، وهو على كلِّ شيءٌ قديرٌ. ومَن كان هذا شأنَهُ كان مع خلقِهِ حقيقة، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولا نقول كما تقول الحُلولِيَّةُ من الجهمية وغيرهم: .....

قوله: «**ولا نقولُ كما تقولُ الحلوليةُ من الجهميةِ**»، ومعنى حلَّ نزلَ، حلَّ في الشيءِ إذا نزلَ فيه. هل يُعقلُ هذا؟! نسألُ اللهَ العافيةَ.

قال: «**الحلوليةُ منَ الجهميةِ وغيرِهم**» هذا الذي عُرِفَ، فهل يوجدُ الحلولُ عند غيرِ الجهميةِ والصوفيةِ؟ النصارى، نعم التفاصيلُ كثيرةٌ، ولكن هناك مَن يدَّعي أنه من أهل السُّنَّةِ ويقولُ بشيءٍ من الحلولِ؟ الأشاعرةُ ماذا يقولونَ؟ اللهُ في كلِّ مكانٍ. هذا نوعٌ من الحلولِ تعالى اللهُ وتقدَّس، فنحنُ نكفُرُ بهذا، ونؤمنُ بأنَّ اللهَ مستوٍ على عرشِهِ عالٍ على

إنَّه مع خلقه في الأرض. ونرى أنَّ مَن قال ذلك فهو كافرٌ أو ضالٌّ؛ لأنه وصف اللهَ بما لا يليقُ به من النقائِصِ.

ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله ﷺ أنه يَنزِلُ كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير؛ فيقول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[1].

خلقِهِ، وهو معنى قولِ أهل السُّنَّةِ: بائنٌ من خلقِهِ.

وقول الحلولية: «**إنه مع خلقِهِ في الأرضِ**» ليسَ في الأرضِ فقط، في كلِّ مكانٍ، عندهم في الأرضِ وفي البطونِ؛ بطون الناسِ، وفي أدمغتهم وفي كلِّ شيءٍ! تعالى اللهُ وتقدَّس .

وقولُه: «**ونرى أنَّ مَنْ قالَ ذلكَ فهوَ كافرٌ أو ضالٌّ**»، ما الفرقُ بينَ الكفرِ والضلالِ؟ الضلالُ أعمُّ.

العادةُ أنْ يكونَ الأعمُّ مُشتمِلًا على المذكورِ وأكثرَ، والمرادُ أنهُ يكونَ كافرًا أو أنهُ غيرُ كافرٍ ولكنه على غيرِ هُدًى؛ لأنهُ قد يكونُ عنده شبهةٌ أو شيءٌ منعَهُ من قبولِ الحقِّ، ولو تبيَّنَ له لَقَبِلَهُ، هذا يسمَّى ضالًّا، أما الذي قصدَ هذا الشيءَ مع العلمِ فهوَ يكونُ كافرًا؛ لأنَّهُ وصفَ اللهَ بما لا يليقُ بهِ من النقائصِ من مخالطةِ الخلقِ أو كونِهِ معهم.

وقوله تعالى: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**»، فأستجيبَ، فَأُعْطِيَهُ، فأغفرَ، بالرفعِ والنصبِ، يجوزُ هذا وهذا.

والنزولُ في آخِرِ الليلِ يتكررُ كلَّ ليلةٍ، ينزل وهوَ على عرشهِ تعالى، ونزولُه بالنسبةِ للأرضِ: الأرضُ صغيرةٌ جدًّا لا تساوي ذرةً بالنسبةِ إلى بعض مخلوقاتِ اللهِ ﷻ التي هي السمواتُ، وحتى الناسُ الذينَ ينظرون

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

.....

الآنَ بمكبراتٍ يعرفونَ هذا تمامًا؛ فالشمسُ تساوي أكثر من ثلاثمائة ضعف حجم الأرض؛ يعني أنَّ الأرضَ صغيرةٌ بالنسبةِ للشمسِ، والشمسَ صغيرةٌ بالنسبةِ للسماءِ، صغيرة جدًّا، فمن أجلِ ماذا ينزلُ اللهُ ﷻ إلى السماءِ الدنيا؟ يخاطبُ عبادَهُ ويخبرُهم أنه قريبٌ منهم.

ولكنْ هذا النزولُ يجبُ أن يكونَ خاصًّا بهِ، لا مثلَ النزولِ الذي نعرفُه نحنُ. فأفعالُهُ كلُّ أفعالِه هكذا؛ لا تكونُ كأفعالِ الخلقِ، النزولُ الذي نعرفُهُ نحنُ من أنفُسِنا، كأنْ يكون أحدنا فوقَ السطحِ ثم ينزلَ فيكونَ السطحُ فوقَهُ؛ لأنهُ ضعيفٌ وصغيرٌ وحقيرٌ، أما اللهُ ﷻ فهوَ أكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ، وإذا شاءَ قبضَ السمواتِ والأرضَ بما فيها وصارتْ كلُّها مثلَ الذرَّةِ، فمثل هذا أيصحُّ أنْ يقالَ: إنْ السملواتِ من فوقِهِ! تعالى وتقدَّس. ولهذا يجبُ أن نعلمَ أنَّ النزولَ نزولٌ يليقُ بعظَمَتِهِ ولا يُتَصَوَّرُ. يسأل الناسُ: إذا نزلَ أيخلو منه العرش أم لا؟ يتصوَّرُ كثيرونَ سؤالات كهذه؛ إذا نزلَ أيخلو منه العرشُ أم لا؟ لا داعي لهذا؛ نقول ينزل وهو فوقَ عرشِهِ، ينزلُ ولا يكونُ شيءٌ فوقَهُ، وكذلكَ مجيئُه يومَ القيامةِ وهو فوقَ عرشِهِ، يجيءُ وهو فوقَ كل شيءٍ.

ولذلك من عقيدةِ أهل السُّنَّةِ أنَّ علوَّهُ صفةُ ذاتٍ، وصفةُ الذاتِ التي تُلازِمُهُ ولا تفارِقُهُ أبدًا، أما صفةُ الفعلِ فهيَ التي تتعلَّقُ بمشيئتِهِ ﷻ، ونؤمنُ بأنَّهُ ﷻ يغضبُ ويرضى، يغضبُ على عبادِهِ الذين يخالفونَ أمْرَهُ، وإذا غَضِبَ عَذَّبَ تعالى وتقدَّس، ويرضى عن عبادِهِ الذين يؤمنونَ به ويتَّبِعُونَ أمْرَهُ ويمتثلون له، فنؤمن بأنه تعالى يأتي يومَ القيامةِ لفصلِ القضاءِ بينَ عبادِهِ بنفسِهِ، فهوَ الذي يحاسِبُ عبادَهُ وهو الذي يخاطبهم، وفي الصحيحِ يقولُ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ

. . . . . .

تُرْجُمَانٌ»[١].

ولكن قوله: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ» الضميرُ في منكم للمؤمنين.

والخلقُ منهم مَن لا يُكلَّمُ ولا يُنْظَرُ إليه ولا يُزَكَّى، ولكن يُذهَبُ بهِ إلى جَهَنَّمَ بدونِ تكليم، لا يستحقُّ الكفرةُ والفجرةُ أن يُكَلَّمُوا، لكنْ هؤلاءِ المؤمنونَ هم الذينَ يكلمهمُ اللهُ ﷻ، وتكليمُه لهم في آنٍ واحدٍ، كلُّ واحدٍ يرى أنهُ يُكلَّمُ وَحْدَهُ، وهو يُكَلِّمُ الجميعَ كلَّهم، الآنَ ليسَ في الأرضِ مِنْ مؤمنٍ إلا ويدعو ربَّهُ ويسألُهُ؛ لأننا بحاجةٍ دائمًا إلى ربِّنا ﷻ ويسألونَ في وقتٍ واحدٍ، وكلُّهم يستمعُ اللهُ إليه لا يَفُوتُهُ كلامُ هذا عن هذا، ليس المؤمنونَ فقطْ؛ حتى الدوابُّ وكذا أهل السماوات.

النبيُّ ﷺ يقول: «خَرَجَ نَبِيٌّ يَسْتَسْقِي بِقَوْمِهِ» بني إسرائيلَ أو غيرِهِمْ، اللهُ أعلمُ، «فَشَاهَدَ نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا رَافِعَةً قَوَائِمِهَا إلى السَّمَاءِ وتقولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلقِكَ، فَلَا تَمْنَعْ عَنَّا بِذُنُوبِنَا فَضْلَكَ، فَقَالَ: ارْجِعُوا، سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ»

يعني أنَّهُ ﷻ يستمعُ إلى كلِّ شيءٍ من خلقِهِ، وأكثرُ الخَلْقِ وأشرُّهم بنو آدمَ بعدَ الشياطينِ؛ ولهذا لمَّا ذَكَرَ ﷻ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجبالَ والدوابَّ تسجدُ لهُ قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، معناه أنَّ كثيرًا منَ الناسِ لا يسجدُ للهِ، ثم قالَ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] أي: الذينَ لا يسجدونَ للهِ، ثم قالَ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، معناهُ أنَّ الذي لا يسجدُ للهِ فهو مُهَانٌ، قد أهَانَهُ اللهُ ﷻ فلا أحدَ يُكْرِمُهُ.

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

ونؤمن بأنه ﷻ يأتي يومَ المَعادِ للفَصلِ بين العباد؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٣].

فالمقصودُ: أنَّ كلَّ المخلوقاتِ أطوعُ للهِ ﷻ منَ ابنِ آدمَ؛ فكلُّها تعبد اللهَ: طيورُها ودوابُّها وشجرُها وجبالُها وغيرُها، وكلُّها يستمعُ اللهُ لها في آنٍ واحدٍ لا يفوتُهُ سماعُ شيءٍ تعالى وتقدَّس.

وكذلك المحاسبة والتكليم، وكذلك سائر أفعاله على هذه الصفة ويجبُ أن نؤمِنَ بهذا.

قوله: «**ونؤمن بأنه ﷻ يأتي يومَ المَعادِ للفَصلِ بين العباد**» يعني أنَّ الإيمانَ يجبُ أنْ يكونَ بدليلٍ؛ جاءَ عن اللهِ ﷻ أنهُ قال: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ يعني ليسَ الأمرُ كما يقولُ هؤلاءِ الكفرةُ أنهُ لا بعثَ ولا نشورَ ولا حسابَ. الأمرُ ليسَ كذلكَ، كلا، بل هناكَ البعثُ والنشورُ، وذلكَ ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ما هو الدكُّ؟ مساواةُ وإزالةُ كلِّ ما عليها، فتصبحُ تضطربُ اضطرابًا شديدًا جدًّا، فلا يمكنُ أن يبقى عليها حيٌّ.

إذا حصلَ زلزالٌ بجهةٍ منها ولو لدقائقَ زالتِ المباني وهلكَ مَن فيها، والجبالُ تتشققُ، فكيفَ إذا اضطربتِ الاضطرابَ الشديدَ؟ ولهذا تكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ، والعهنُ: القطنُ.

فبعدما أزيلَ كلُّ شيءٍ وبُدِّلَتِ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ، وبُعِثَ الناسُ، في هذهِ الحالةِ لا وجودَ لهم، وقتَ دكِّ الأرضِ وإزالةِ الجبالِ هم أمواتٌ في قبورِهِم، ثم بعدَ ذلكَ يُبعثونَ وقد هُيئتِ الأرضُ ومُدَّتْ وسُوِّيتْ وصارتْ واسعةً حتى تتسعَ لهم؛ لأنهم كثيرونَ، والملائكةُ ستنزل عليهم.

ونؤمن بأنه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

ونؤمن بأن إرادةَ الله تعالى نوعان: **كَونِيَّة**: يقعُ بها مرادُهُ، ولا يلزم أن يكون محبوبًا له، وهي التي بمعنى المشيئة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. **وشرعية**: لا يلزم بها وقوع المُرادِ، ولا يكون المرادُ فيها إلا محبوبًا له، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ يعني أنَّ الملائكةَ صافُّونَ للهِ ﷻ في الأرضِ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، والمجيءُ معلومٌ أنه الإتيانُ من فوقَ، فنحنُ نؤمنُ بهذا وننتظرهُ، وسيقعُ قطعًا، وسيَعَضُّ الظالمُ على يديهِ ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، لكنْ لن ينفعَ، وإنما هيَ حسراتٌ وعذابٌ.

قوله: «**ونؤمنُ بأنهُ تعالى** ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾» هذا الفعلُ المطلَقُ بالأزلِ الذي لا نعرفهُ، وفي الأبدِ الذي لا نُدرِكُهُ، وفي الحالِ، فما أرادَ من شيءٍ فَعَلَهُ، ولا أحدَ يَحُولُ بينهُ وبينَ ذلكَ، فهذا مِنْ صفاتِهِ: الكمالُ للهِ ﷻ.

قوله: «**ونؤمن بأن إرادةَ الله تعالى نوعان**» وكذلكَ نؤمنُ بأنَّ اللهَ ﷻ لهُ إرادةٌ، والإرادةُ تكونُ كونيةً قدَريةً، وهي المشيئةُ، وتكونُ أمريةً شرعية، وهي لا تكونُ إلا للمسلمينَ، الأمريةُ لا تكونُ إلا للمسلمِ، وهيَ أنه يريدُ به اليُسْرَ ولا يريدُ به العُسْرَ، أما غيرُه من الكفرة وغيرهم فلا يدخلُ فيها، وهذا في الدينِ، في التشريع، كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]، لما ذَكَرَ الصومَ أيضًا قالَ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] يعني في شرعِهِ فيما شرعَهُ لكم ﴿وَلَا

ونؤمن بأن مُرادَهُ الكوني والشرعي تابعٌ لحكمته، فكلُّ ما قضاه كونًا، أو تَعَبَّدَ به خلقُهُ شرعًا، فإنه لحكمة، وعلى وفق الحكمة، سواءٌ علمنا منها ما نعلم أو تَقاصَرَتْ عقولُنا عن ذلك: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ونؤمن بأن الله تعالى يُحِبُّ أولياءه، وهم يُحِبُّونه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، لو شاءَ لَكَلَّفَكُمُ الشيءَ الذي لا تستطيعونَهُ فهلكتمْ، ولكنْ من فَضْلِه عليكمُ التيسيرُ.

«**ونؤمنُ بأنَّ مرادَهُ الكونيَّ والشرعيَّ تابعٌ لحِكْمَتِهِ**» يعني أنهُ لا يقعُ منه شيءٌ إلا لحكمةٍ، والحكمةُ تعني أنه يفعلُ الشيءَ لعلَّةٍ واضحةٍ وجليَّةٍ ومعروفةٍ، ولكنَّ هذه العلةَ وهذهِ الحكمةَ قد تُدرَكُ مِنْ قِبَلِ الخَلْقِ وقدْ لا يدركونها، ولكن يجبُ أن نؤمِنَ بأنه لا يفعلُ شيئًا إلا لحكمةٍ، لا كما يقولُ الزنادقةُ الكفرةُ؛ يقولونَ: لماذا خُلِقَتِ الْحَيَّاتُ؟ لماذا خُلِقَتِ الْعَقَارِبُ؟ لماذا خُلِقَ الذبابُ؟ لماذا خُلِقَ البعوضُ؟ يقولونَ: لندرِكَ منه الأذى، قل: أنتَ لا تدرِكُ؛ لأنكَ ضعيفٌ، لكن يجبُ أن نؤمنَ أنَّ اللهَ لا يخلقُ شيئًا ولا يُوجِدُ شَيْئًا إلا لحكمةٍ عظيمةٍ؛ ولهذا يتبينُ للناسِ في كلِّ وقتٍ من الأوقاتِ أشياءُ كانوا يُنْكِرُونَهَا تَبَيَّنَ أن فيها شيئًا من حِكْمَةِ اللهِ ﷻ، الواجبُ أنْ نؤمنَ أنَّ خَلْقَهُ وفِعْلَهُ وقولَهُ وعذابَهُ وجزاءَهُ يكونُ لحكمةٍ عظيمةٍ عَلِمَها ﷻ، وعلَّمَ مَن شاءَ من خلقِهِ شيئًا منها، ومنعَه عن غيرِهم لِأمرٍ يريدُه تعالى وتقدَّس، والأمرُ له تعالى وتقدَّس.

قوله: «**ونؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى يحبُ أولياءَهُ**» والحبُّ معلومٌ؛ فلا

ونؤمن بأن الله تعالى يَرضَى ما شَرَعَهُ مِنَ الأعمالِ والأقوالِ، ويكرَهُ ما نَهَى عنه منها: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ونؤمن بأن اللهَ تعالى يَرضى عَنِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

ونؤمن بأن الله تعالى يَغضَبُ على مَنْ يستحِقُّ الغضبَ مِنَ الكافرين وغيرهم: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

يستطيعُ إنسانٌ أن يقولَ: فَسِّرْ لي الحبَّ، ما هو؟ ماذا نقولُ؟ نقولُ: فَسِّرْ لنا الماءَ، ما هوَ؟ فَسِّرْ لنا الترابَ، ما هو؟ الشيء الواضحُ لا يُفَسَّرُ.

أما قولهم: مقتضى المَيْلِ إلى الشيءِ الملائم وهكذا، ثم يقولونَ: هذا حُبُّ المخلوقِ، فنقولُ: حُبُّ اللهِ وصفةُ اللهِ لَيستْ كصفةِ المخلوقِ؛ لأنه ليسَ كمثلِهِ شيءٌ تعالى وتقدَّس، فهم يعودونَ إلى أنفُسِهم دائمًا، تكونُ هي الأصلَ، ثم بناءً على ذلكَ ينفونَ صفاتِ اللهِ ﷻ! والأدلةُ على ذلكَ كثيرةٌ.

قوله: «**ونؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى يرضى**» يرضى عن الأفعالِ، وعن الأعيانِ، وعن الصفاتِ التي يريدها ويحبُّها.

والأعيانُ الذين يفعلونَ ويمتثلونَ أمْرَهُ ويجتنبونَ نهيَهُ، فهوَ يحِبُّ أشياءَ ويكافئ من يفعلها، ويكرهُ أشياءَ ويُبغضُها ويعاقِبُ عليها، نؤمنُ بأنَّ اللهَ ﷻ يرضى ويسخطُ ويلعنُ ويرحمُ حسب ما ذكر اللهُ ﷻ في كتابِهِ وذكرَهُ رسولُهُ ﷺ.

ونؤمن بأن لله تعالى وجهًا موصوفًا بالجلالِ والإكرامِ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧].

ونؤمن بأن لله تعالى يدين كريمتين عظيمتين: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

قوله: «**ونؤمن بأن لله تعالى وجهًا موصوفًا بالجلالِ والإكرامِ**» الجلالُ يعني العظمةَ؛ فلهُ العظمةُ والكمالُ والحُسْنُ والبهاءُ والكرمُ والجودُ، تعالى اللهُ وتقدَّس، كما قال ﷻ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ فذو صفةٌ للوجهِ؛ فلو كانتْ صفةً لربِّكَ لكانَتْ مجرورةً «ذِي الْجَلَالِ» كما قال في آخرِ السورةِ: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، ولمَّا كانَ وصفًا للربِّ جاءَ تابعًا لهُ، والوصفُ يتبعُ الموصوفَ في الإعرابِ وبالإفرادِ وبالتثنيةِ والجمعِ، كما هو معروفٌ في النحوِ.

قوله: «**ونؤمنُ بأنَّ للهِ تعالى يدينِ كريمتينِ عظيمتينِ**» إذا شاءَ قبضَ بإحداهما المخلوقاتِ كلَّها، وله أصابعُ تعالى وتقدَّس لليدينِ أصابعُ كما ثبتَ في الأحاديثِ؛ لقولِهِ ﷺ: «قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[1]، فكان ﷺ يقولُ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا على دِينِكَ»[2]، وكذلكَ جاءَ أنه يضعُ السماواتِ على إصبعٍ؛ السمواتُ كلُّها على إصبعٍ، والأرضينَ بما فيها على إصبعٍ، ثم ذكرَ التفصيلَ: «ثُمَّ يهُزُّهُنَّ فيقُولُ: أنا المَلِكُ، أنا الْمَلِكُ»[3]، يقول: أينَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٩٠).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١).

وأجمعَ أهلُ السُّنَّةِ على أن العينينِ اثنتان، ويؤيده قولُ النبي ﷺ في الدجال: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»(٢).

ملوكُ الدنيا؟ ملوكُ الدنيا؛ لأنهم يَتَكبَّرُونَ ويتجبرونَ على عبادِ اللهِ؛ يقول: أينَ هُمْ؟ في ذلكَ الوقتِ أينَ هم؟ هم تحتَ طباقِ الترابِ لم يُبعثوا؛ لأنَّ هذا حينما تُبدَّلُ السمواتُ والأرضُ ويقولُ: «فَيُنَادِي: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فلا يجيبُ أحدٌ؛ فكلُّ الخَلْقِ قد هلكوا، حتى الملائكةُ، فيجيبُ نفسَهُ، ويقولُ: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»(٣) تعالى وتقدَّس.

ثم بعدَ ذلكَ يبعثُهم ليجازيَهم على أعمالِهم، وإذا بُعثوا فلا تَقْبَلُ حياتُهم الموتَ؛ فحياتهم بلا موتٍ؛ إمَّا عذابٌ وإما نعيمٌ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قوله: «**ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين**» وليسَ كما يقولُ أهلُ المحالِ وأهلُ الباطلِ: إن العينَ معناها عِلْمُه، ومعناه أنه لا يخفى عليه شيءٌ؛ فالعينُ جاءتْ مفردةً في القرآنِ، وجاءتْ مجموعةً، ولم تأتِ مثنَّاة لا في القرآنِ ولا في الحديث، أي: تثنيةً صريحةً. والسببُ في هذا أنها جاءتْ مضافةً إلى الضمائرِ، وفي اللغةِ الفصحى لغةِ العربِ إذا جاءَ المثنى مضافًا إلى ضميرِ الجمعِ جُمِعَ وإذا جاءَ المثنى مضافًا إلى ضميرِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠٢)، ومسلم (٢٩٣٣).
(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٧٦٤٠).

. . . . . .

الإفرادِ أُفرِدَ، كما قال ﷻ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، المرأتان لهما قلوبٌ أم قلبان؟ قلبانِ فقط، فجُمِعَ؛ لأنه أضيف للتثنيةِ، وقال ﷻ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] هذا ضميرُ إفرادٍ فأُفْرِدَ، وقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، لما جاءَ الجمعُ جُمِعَتْ، فهذا هو السببُ.

وقد جاءَتِ التثنيةُ في حديثٍ ضعيفٍ ذُكر عن النبي ﷺ، وهوَ ضعيفٌ لا يَثْبُتُ، قال: «إن العَبْد إذا قام في الصلاة فإنَّه بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له الرب: يا ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى من خير لك مني، ابنَ آدم أَقْبِلْ على صلاتك، فأنا خير لك ممن تلتفت إليه»[1]، وهذا لا نحتاجُ إليهِ؛ لأنَّ الضعيفَ لا يثبُتُ بهِ شيءٌ، ولكنْ نقولُ: إنَّ هذه القاعدةَ هي السببُ في أنها لا تأتي مثناةً.

أما السُّنَّةُ ففيها ما يدلُّ على التثنيةِ، وهي قولُه ﷺ: «وَاعْلَمُوا أنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» لَمَّا ذَكَرَ الدجالَ، فإنهُ أعورُ عينِهِ اليمنى. إذا قيل في اللغةِ: أعورُ، فمعنى ذلكَ أنه فقَدَ إحدى العينينِ، هذا هوَ العَوَرُ، فهذا الرجلُ الشيطانُ يزعمُ أنهُ ربُّ العالمينَ، وهو ناقصٌ ليسَ له إلا عينٌ واحدةٌ.

ولهذا يسميه اليهودُ وحيدَ العينِ، ويزعمونَ أنهُ سيملكُ الأرضَ، وأنه يملكُ لهم، وهم ينتظرونه الآنَ، يقولون: إنه سيخرج، يزعمون أنهم يجدونَ هذا في كُتُبِهِم فهم ينتظرونه، هذا الزعمُ قد يكونُ كذبًا، واللهُ أعلمُ متى سيخرجُ. المقصودُ أنهُ لا بد من خروجِهِ، وإذا خرجَ فهذهِ فتنةٌ عظيمةٌ؛ فإنه يقولُ للرجلِ: إذا أحييتُ لكَ أباكَ وأمَّكَ تؤمنُ بأني ربُّكَ؟ يقولُ: نعمْ، فيتمثَّلُ له شيطانانِ أحدُهُما في صورةِ أبيهِ، والآخرُ في

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٢٨)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٧٠).

.....

صورةِ أمِّهِ، ويقولانِ له: يا بُنَيَّ آمِنْ بِهِ واتَّبِعْ؛ فإنهُ ربُّكَ.

ولهذا يقولُ النبيُّ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»[1]. يقولُ للأرضِ: أَنْبِتِي، ويقولُ للسماءِ: أمطري، ويحصلُ ذلكَ، ويأتي إلى الخَرِبَةِ ويقولُ لها: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فتَخْرُجُ كيعاسيبِ النَّحْلِ، ويطأُ الأرضَ كلَّها ما عدا المدينةَ ومكةَ؛ فإنهُ لا يستطيعُ دخولَهُما، تصدُّهُ الملائكةُ، والناسُ لا يستطيعونَ. وفي سننِ ابنِ ماجه: «أَنَّهُ يَأْتِي فِي سَبْخَةٍ من سِبَاخِ الْمَدِينَةِ فَيَنْصُبُ خِيَامَهُ ثُمَّ يَصْعَدُ عَلَى أُحُدٍ وَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: انْظُرُوا إِلَى قَصْرِ مُحَمَّدٍ ذَاكَ الْأَبْيَضِ» هوَ كانَ أحمرَ، والآنَ صارَ أبيضَ. ولا ندري إنْ كانَ الدجالُ قريبًا؟ اللهُ أعلمُ.

المقصودُ أنَّ الرسولَ ﷺ ذكرَ تفاصيلَ، وهذا الرجلُ نقولُ: إنه رجلٌ مثلُ الناسِ بلْ هوَ أنقصُ؛ لأنهُ فاقدُ العينِ اليمنى، يقولُ ﷺ: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[2] التي ذهبَ ماؤها فصارت ملتويةً، «وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ»[3] المؤمنُ فقطْ يقرؤها، وغيرُ المؤمنِ لا يقرؤها. على كل حالٍ، الفتنُ تُعرضُ على القلوبِ وعلى الأبدانِ والأبصارِ وغيرها، وإذا لم يُثَبِّتِ اللهُ ﷻ العبدَ ضلَّ وهلكَ. فالإيمانُ بصفاتِ اللهِ ﷻ حسبَ الآياتِ التي ذُكرتْ، ونرجو أن تكونَ واضحةً لا إشكالَ فيها، وإذا كانَ هناكَ إشكالٌ يُسأل عنه حتى نتعاونَ على حلِّهِ إذا استطعنا، وإلا فالأمرُ بيدِ اللهِ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٩).
(٣) أخرجه البخاري (١٥٥٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٥).

ونؤمن بأن الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ونؤمن بأن المؤمنين يَرَوْنَ ربَّهُم يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣].

ونؤمن بأن الله تعالى لا مِثْلَ له لكمالِ صِفاتِهِ، .....

وقولُهُ: «**ونؤمنُ برؤيةِ ربِّنا** ﷻ»، أي أنه يُرَى في الآخرةِ، ومن الناسِ مَن يُنْكِرُهَا، وإنكارُها بناءً على ما يقرِّرُونَهُ من آرائِهم وعقولِهم الفاسدةِ؛ التي تخالفُ الحقَّ وتخالفُ ما أخبرَ اللهُ ﷻ بهِ، فهم يقولونَ: كلُّ مرئيٍّ لا بد أن يكون جسمًا، فلا بد أن تصطدمَ الرؤيةُ بشيءٍ أمامَها وأن يكونَ جسمًا.

فبناءً على ذلكَ قالوا: إنَّ اللهَ لا يُرى، وهذا من العجائبِ، اللهُ ﷻ يخبرُ خبرًا واضحًا جليًّا، ثم هم ينفونَ هذا الخبرَ.

وفي مثلِ هذا الآيةِ: نؤمن باللهِ ﷻ وبكلامِهِ وبأنهُ حقٌّ، وكذلكَ الإيمانُ بأنهُ ﷻ يكلِّمُ عبادَهُ، وأنه يتكلَّمُ كما سبقَ أيضًا.

وقولـه ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، الإدراكُ هوَ الإحاطةُ بالشيءِ؛ ولهذا يرى الإنسانُ السماءَ ولكنه لا يُدْرِكُها، فنفي الإدراكِ لا يقتضي نفيَ الرؤيةِ كما زعموا، وقد علمنا أنَّ رؤيةَ اللهِ ﷻ في الآخرةِ واقعةٌ، وأنها أفضلُ النعيمِ الذي يُنعِمُ اللهُ ﷻ بهِ على عبادِهِ، واللهُ ﷻ أكبرُ من كلِّ شيءٍ وأعظمُ من كلِّ شيءٍ.

وقوله: «**ونؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى لا مثلَ له؛ لكمالِ صفاتِهِ**» ليسَ في الصفاتِ فقطْ، لا مثلَ له في ذاتِهِ، وهذا مما يتفقونَ عليه كلُّهم، ولا أحدَ يخالفُ فيه، حتى النُّفَاةُ الذين ينفونَ الصفاتِ، ويقولون: إن اللهَ لا مثيلَ له في ذاتِهِ.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإذا كانَ لا مثيلَ له في ذاتِهِ فالصفاتُ كذلك تبعًا للذاتِ، ومعنى كونِها تبعًا للذاتِ أنه إذا كانَ لا مثيلَ له في ذاتِهِ فهو كذلكَ في صفاتِهِ لا مثيلَ له، وهو كذلكَ في أفعالِهِ لا مثيلَ له، وفي حقِّهِ يجبُ أن لا يكونَ له مثيلٌ، فهذه أمورٌ أربعةٌ من خصائصِ اللهِ لا يشاركُهُ فيها المخلوقُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الكاف هنا دخلتْ على المِثْلِ؛ ولهذا أشكلَ ذلك على بعضِ الناسِ:

يقولُ بعضُهم: لو قُدِّرَ أنه له مِثْلٌ فإنَّ هذا المِثْلَ لا مثيلَ له، وهذا تقديرٌ بعيدٌ جدًّا.

وأحسنُ من هذا أنْ نقولَ: إنَّ الكافَ جاءتْ للتأكيدِ فقطْ، والمعنى أنك إذا حذفتها صحَّ الكلامُ، ليسَ مِثْلَهُ شيءٌ.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يقولُ بعضُ العلماءِ: نصَّ على السمعِ والبصرِ في ختمِهِ لهذه الآيةِ؛ لأنه سبقَ فيها ذِكْرُ المخلوقاتِ قبلَها، والنفيُ إذا جاءَ مُجْملًا هكذا يقتضي الكمالَ؛ لأنكَ مثلًا لو قابلتَ أحدَ الكبارِ وتقولُ لهُ: أنتَ لستَ كالناسِ، لا كالزبالِ، ولا كالحائكِ، ولا كالخياطِ؛ لعُدَّ هذا من سوءِ الأدبِ.

إذا قلتَ: أنتَ لستَ كمثلِ أحدٍ من الناسِ، صارَ هذا الإجمالُ فيه إجمالُ الأدبِ، وفيه أيضًا كمالُ الصفاتِ التي يوصفُ بها، فلهذا جاءَ النفيُ مجملًا بالنسبةِ لربنا ﷻ، ولكن يقولُ: إنه ختمَ الآيةَ بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وذلكَ أنَّ الناسَ عندهم السمعُ وعندهم البصرُ، بل كلُّ الحيواناتِ عندها السمعُ والبصرُ.

بمعنى: أنها تسمعُ وترى، يقولُ: فكأنه ﷻ يقولُ: لا يَحْمِلْكم قولي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على إنكارِ الصفاتِ التي أتصفُ بها، ومنها

.....

الصفاتُ التي يكونُ فيها اشتراكٌ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يتصفُ بالسمعِ والبصرِ، والمخلوقُ أيضًا يتصفُ بهما.

ففيهما اشتراكٌ في اللفظِ والمعنى، ولكنْ عندَ الإضافةِ والتخصيصِ يزولُ الاشتراكُ نهائيًا؛ يعني إذا أضفتَ السمعَ إلى المخلوقِ صارَ هذا خاصًا بالمخلوقِ، لا يشاركه فيه اللهُ، وإذا أضفتَهُ إلى اللهِ صار خاصًا باللهِ لا يشاركُهُ المخلوقُ فيه.

وكذلكَ إذا خصَّصته فقلت: سَمِعَ اللهُ، أو سَمِعَ فلانٌ، فيكون خاصًا بما أضيف إليه، ويزولُ الاشتراكُ، وهذا معنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني عندما نُضيفُ إليهِ الصفةَ تصبحُ لا اشتراكَ فيها، ولأجلِ أن نفهمَ لو قيل لنا مثلًا: إنَّ الجنةَ فيها عنبٌ، ونحنُ لا نعرفُ العنبَ أصلًا، ولا وجودَ له، ولا لهُ ذِكْرٌ عندنا، هل نفهمُ هذا؟!

لا نفهمُهُ، فلو لم يكن عندنا سمعٌ وبصرٌ معلومٌ، ثم خوطبنا وقال لنا ﷻ: إن اللهَ سميعٌ بصيرٌ، لا نفهمُ هذا، لا نعرفه، فالاشتراكُ لأجلِ الفهمِ، ثم جاءَ نفيُ المشابَهَةِ، ونفيُ المثليَّةِ.

ونفي المثليةُ أبلغُ من نفيِ المشابهةِ؛ لهذا لو تتبعتَ القرآنَ ما وجدتَ فيه نفيَ الشبيهِ، فلا تجدُ مثلا: إن اللهَ لا شبيهَ له، إن اللهَ لا يُشْبِهُهُ شيءٌ، ولكن يأتي نفيُ المِثْلِ، نفيُ النِّدِّ، نفيُ الْكُفْءِ، نفيُ السَّمِيِّ، هذا أبلغُ وأشملُ؛ لأنَّ التشبيهَ فيه اشتباهٌ، وفيهِ اشتراكٌ، وفيه توهُّمٌ، والأمورُ التي فيها توهُّمٌ لا تأتي في كتابِ اللهِ ﷻ.

ولهذا صارَ مثلًا: قولهم: إنَّ اللهَ لا يشبهُهُ شيءٌ، فيه حقٌّ وباطلٌ؛ لهذا لما قيلَ للإمامِ أحمدَ في وقتِ الفتنةِ: «لا نَتْرُكُكَ حتى تقولَ: إنَّ اللهَ لا شبيهَ لهُ بوجهٍ من الوجوهِ»، أبى أنْ يقولَ هذا.

ونؤمن بأنه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لكمالِ حياتِهِ وقيومِيَّتِهِ.

ونؤمن بأنَّه لا يَظلِمُ أحدًا؛ لكمالِ عَدلِهِ. وبأنه ليس بغافلٍ عن أعمال عباده لِكمالِ رقابته وإحاطته.

لأنَّ إثباتَ الصفاتِ تشبيهٌ عندهم، فهم يريدون أنْ ينفيَ الصفاتِ من كلِّ وجهٍ، وقد فَهِمَ مرادَهُم، فأبى أن يقولَ هذا، وقال: أعطوني شيئًا من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ أقُلْ بِهِ، أما كلامكم هذا فلا أقبلُه ولا أقولُ به؛ لأنّ فيه إرادةَ الباطلِ.

وقوله ﷻ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السِّنة هي مبادئُ النومِ، والنومُ شبيهُ الموتِ؛ فلكمالِ حياتِهِ ﷻ نفى عن نفسِهِ هذا الشيءَ؛ ولهذا إذا كمُلَ خَلْقُ الإنسانِ لا ينامُ.

وقد سُئلَ النبيُّ ﷺ: أينامُ أهلُ الْجَنَّةِ؟ فقال: «النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ»[1].

ولمَّا كَمُلَتْ حياتُهم صاروا لا يحتاجون إلى النومِ، ولكنْ في حياتِهم الناقصةِ فالنومُ لهم ضروريٌّ؛ فإذا لم يناموا يموتون، وربنا ﷻ له كمالُ الحياةِ، كما أن له كمالَ المُلْكِ، وله كمالُ التدبيرِ والتصرُّفِ بالخَلْقِ.

وقولُهُ: «**ونؤمنُ بأنه لا يَظْلِمُ أَحَدًا؛ لكمالِ عَدْلِهِ، وبأنهُ ليسَ بغافلٍ عن أَعْمَالِ عِبَادِهِ؛ لِكَمَالِ رَقَابَتِهِ وَإِحَاطَتِهِ**»، يقصدُ بهذا أنَّ النفيَ لا يأتي لذاتِهِ في صفةِ اللهِ، فالنفيُ إذا جاءَ فهو لنفيِ الشيءِ المذكورِ وإثباتِ كمالِ ضدِّهِ، أما النفيُ المحضُ الخالصَ الذي لا يرادُ به إلا النفيُ فقطْ فلا يأتي في صفاتِ اللهِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٦).

ونؤمن بأنه لا يُعجِزُهُ شيءٌ في السموات ولا في الأرض؛ لكمالِ علمِهِ وقُدرَتِهِ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]، .....

فإذا قالَ ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] يكونُ المرادُ بهذا نفيَ الظلمِ وإثباتَ كمالِ العدلِ.

وإذا قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨] اللغوبُ هو التعبُ والإعياءُ، فلِكمالِ قدرتِهِ ﷻ نفى اللغوبَ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام: ١٧] ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وهكذا كلُّ نفيٍ جاءَ بصفاتِ اللهِ فهو يرادُ به نفيُ ذلك الشيءِ المذكورِ وإثباتُ كمالِ ضدِّه.

وقولُهُ: «**ونؤمنُ بانهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ..**»، هل هناكَ أحدٌ يقولُ إنَّ اللهَ يُعْجِزُهُ شيءٌ؟

كلامُ اليهودِ باطلٌ ظاهرٌ واضحٌ، ولكنَّ المتكلمينَ يقولونَ أشياءَ عجيبةً، وهي شكوكٌ وشُبُهاتٌ يُلقيها الشيطانُ.

ففي آخرِ سورةِ المائدةِ قالَ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠] قال المتكلمون: «وَخَصَّ العقلُ من ذلكَ ذاته، فليسَ عليها بقادرٍ».

وهل يوجدُ مع اللهِ إلهٌ آخرُ؟ هذا عَدَمٌ، والعدَمُ ليس بشيءٍ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] لا يمكن أن تقومَ ولا تستقيمَ، والممتنعُ أشدُّ من كونِهِ عدمًا، مثلًا:

هل يكونُ الإنسانُ حيًّا وميتًا في آنٍ واحدٍ؟

أيكونُ قائمًا وجالسًا في آنٍ واحدٍ؟

لا يمكنُ، هذا شيءٌ يُسَمَّى ممتنعًا، فالممتنعُ لا يجوزُ أن نقولَ: إنهُ عاجزٌ عنه، أو أنه لا يستطيعُه، وإنما هو تشبيهٌ؛ يُشَبِّهُونَ به على الناسِ؛

وبأنه لا يلحقه تعبٌ ولا إعياءٌ؛ لكمال قُوَّتِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨] أي: مِن تَعَبٍ ولا إعياءٍ.

حتى تضلَّ عقولُهم، أو أقلُّ شيءٍ أنهم يكونون في شكوكٍ وفي أمورٍ يُلقيها الشيطانُ.

العدمُ نفسُهُ الذي ليس بشيءٍ هذا الذي لا وجودَ له، ولو وُجِدَ لَعَلِمَ اللهُ ﷻ ماذا يكونُ؟ كما سبقَ الكلامُ فيهِ.

غيرَ أنَّ العدمَ ينقسمُ إلى قسمينِ:

الأول: عدمُ الوجودِ.

الثاني: وشيءٌ سيوجَدُ ولكنه معدومٌ الآنَ، هذا موجودٌ في عِلْمِ اللهِ، واللهُ يعلمُ أنه سيوجَدُ، أو أنه لنْ يوجَدَ، كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١] ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، أي غيرُ موجودٍ في الوجودِ، ولكنكَ في علمِ اللهِ موجودٌ أنك ستُخْلَقُ. وعدمٌ محضٌ يعلمُ اللهُ ﷻ أنهُ عدمٌ وأنه لنْ يوجَدَ، هذا عدمٌ مطلَقٌ، فكيفَ بالممتنعِ؟

الممتنعُ لا وجودَ له، هو ليسَ بشيءٍ، ولا يجوزُ أن نقولَ: إنهُ لا يَقْدِرُ عليهِ؛ لأنهُ ممتنعٌ لنفسِهِ، وإنما يؤتى بهِ للتلبيسِ فقطْ، أو أنَّ الإنسانَ لا يتصورُ ما يقولُ.

وقولُهُ: «**وبأنَّهُ لا يَلْحَقُهُ تعبٌ ولا إعياءٌ: لكمالِ قوَّتِهِ**»، الإعياءُ هو التعبُ، الإعياءُ من العملِ أي: أنه تعِبَ، وقولُهُ هذا نفيٌ لما قالَهُ بعضُ اليهودِ، إذْ قالوا: إنَّ اللهَ ﷻ لمَّا خلَقَ السمواتِ والأرضَ تَعِبَ فاستراحَ يومَ السبتِ؛ لأنَّ مبدأَ الخلقِ يومَ الأحدِ وانتهى يومَ الجمعةِ. ولهذا اتَّخَذُوا يومَ السبتِ راحةً، يقولونَ، يتشبهون باللهِ: إن اللهَ استراحَ في

ونؤمن بثبوتِ كلِّ ما أثبتَهُ اللهُ لنفسه أو أثبتَهُ له رسولُهُ ﷺ مِنَ الأسماء والصفات، لكن نَتبرَّأُ مِن مَحذُورَينِ عَظيمَينِ؛ هما: التمثيل والتكييف:

فالتمثيل: أن يقولَ بقلبِهِ أو لسانِهِ: صفاتُ اللهِ تعالى كصفاتِ المَخلُوقِينَ.

والتكييف: أن يقولَ بقلبِهِ أو لسانِهِ: كيفية صِفات الله تعالى كذا وكذا.

هذا اليوم. فهذا كلامُ اليهودِ الخبثاءِ الذينَ يجعلونَ اللهَ بمنزلتِهم، تعالى اللهُ وتقدَّس؛ ولهذا لا يجوزُ أن نتشبَّهَ بهمْ.

قوله: «**ونؤمِنُ بثبوتِ كلِّ ما أثْبَتَهُ اللهُ لنفْسِهِ**»؛ هذا إجمالٌ بعدَ تفصيلٍ؛ يعني أنه لا تقتصرُ صفاتُ اللهِ ﷻ على ما ذُكِرَ، فكلُّ ما ذَكَرَهُ اللهُ من أسمائِهِ وصفاتِهِ وذكَرَهُ رسولُه ﷺ يجبُ أن نؤمِنَ به، ويجبُ أن يكونَ الإنسانُ بعيدًا عن التمثيلِ، وعن التكييفِ، وعن التعطيلِ، تعطيلِ اللهِ ﷻ من أسمائِهِ وصفاتِهِ، وعن التحريفِ، هذه أمورٍ أربعة: [تمثيلٌ وتكييفٌ وتعطيلٌ وتحريفٌ].

فالتمثيلُ: جاءَ نفيُه في القرآنِ كثيرًا، كما سبقَ أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

أما التكييفُ؛ فطلبُ كيفيةِ الصفةِ والعلمِ بها، فالكيفيةُ لا تُنفى، ولكن نَنْفِي عِلْمَ الخَلْقِ بها؛ لأنَّ الكيفيةَ هي الحالةُ التي يكونُ عليها، وهذه تتطلَّبُ المشاهدةَ أو أقلُّ شيءٍ أن يكونَ له مثيلٌ يقاسُ عليه، وكلا الأمرين مُنْتَفٍ.

أما التعطيلُ؛ فهو مأخوذٌ من العطلِ وهو الخلوُّ، خلوُّ الشيءِ، كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥] أي: متروكةٍ لا يؤخذُ منها ماءٌ

. . . . . .

ولا تُستعمَلُ.

وفي كلام العربِ يقولونَ: جِيدٌ عاطلٌ، الجِيدُ الرقبةُ؛ يعني بذلك المرأةَ، يقولونَ: جِيدُها عاطلٌ أي ليسَ فيه حُلِيٌّ.

فالتعطيلُ هو الخلوُّ، ومعناه: أنهم يُعَطِّلُونَ اللهَ ممَّا وصَفَ به نفْسَهُ، أو وصَفَهُ به رسولُهُ، وأهل السُّنَّةِ يَبْرَؤُونَ من هذا فيُثْبِتُونَ للهِ ما وَصَفَ به نَفْسَهُ أو وَصَفَهُ به رسولُهُ.

والتحريفُ: أن يُجعلَ الكلامُ على حرفٍ، على جانبٍ، أي لا يؤخَذُ بقصدٍ ويُبحث عن مرادِ المتكلِّم، فالذي يجعله على جانبٍ من معنى اللفظِ وغيرِه يكونُ محرِّفًا، والتحريفُ يأتي في اللفظِ ويأتي في المعنى، وتَحْرِيفُ اللفظِ في كتابِ اللهِ ما استطاعوه؛ لأنَّ اللهَ حفِظَهُ، ولكن تسلَّطُوا على المعاني فحرَّفوها.

أما عندَ اليهودِ فقد حرَّفوا الألفاظَ والمعانيَ، لمَّا حَفِظَ اللهُ ﷻ كتابَهُ تولَّى حِفْظَهُ فما استطاعوا، أما حديثُ الرسولِ ﷺ فكثيرًا ما يأتي التحريفُ بالألفاظِ من هؤلاءِ.

ولهذا تجدُ كثيرًا إذا جاءَ ذِكْرُ النداءِ يقولونَ: يُنادي مُنادٍ، فلا يردُّون النداءَ إلى اللهِ، يقولون يعني مَلَكٌ، ينادي ملكٌ، فاللهُ عندهم لا ينادي، فهم ينفونَ عنه الكلامَ..

وإذا جاءَ مثلًا شيءٌ مما يناسبهم حَمَلُوا بقيةَ النصوصِ في كتابِ اللهِ عليهِ، فمثلًا قولُ اللهِ ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، قالوا يعني يأتي ملائكتُهُ؛ لكن الملائكةَ تقدَّمَ ذِكْرُهُم، ومع التعداد يمتنع هذا، ولكن لقولِ اللهِ ﷻ في سورة النحل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾

ونؤمن بانتفاءِ كلِّ ما نَفاهُ اللهُ تعالى عن نفسه أو نَفاهُ عنه رسولُهُ ﷺ، وأن ذلك النفيَ يتضمَّنُ إثباتًا لكمال ضِدِّهِ، ونسكت عما سَكَتَ اللهُ عنه ورسولُهُ.

ونرى أن السير على هذا الطريق فَرضٌ لا بد منه، وذلك لأنَّ ما أثبتَهُ الله لنفسه أو نفاه عنها سبحانه فهو خَبَرٌ أخبرَ اللهُ به عن نفسه، وهو سبحانه أعلمُ بنفسه وأصدقُ قِيلاً وأَحسنُ حديثًا، والعبادُ لا يُحيطونَ به عِلمًا. وما أثبتَهُ له رسولُهُ أو نَفاهُ عنه؛ فهو خبرٌ أخبرَ به عنه، وهو أعلمُ الناسِ بِربِّهِ، وأنصَحُ الخلقِ وأصدقُهم وأفصحُهم.

[النحل: ٣٣] قالوا: هذه الآية هي المُحْكَمَةُ فنَحْمِلُ عليها بقيةَ الآياتِ؛ كما يقولُ القرطبي وغيرُهُ من المفسرينَ.

فهذا من العجائبِ: يجعلونَ الشيءَ الذي يوافِقُ مذهَبَهُم هوَ المُحْكَمَ الذي يجبُ أنْ تُحْمَلَ عليه الآياتُ الأخرى، معنى ذلك أنهم عطلوا قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، هذا تحكُّمٌ في الواقعِ مع آية النحل لا توافق مذهبهم.

ويعلَمُ الإنسانُ الذي ليسَ عندَهُ انحرافٌ، وليس عنده تعيينُ شيءٍ مُعَيَّنٍ في ذِهْنِهِ أنَّ هذا لا يستقيمُ، فأهلُ السُّنَّةِ يَبْرَؤونَ من هذا الشيءِ، وهو نوعٌ من التحريفِ اللفظيّ بالتحريفِ المعنويِّ.

فعلى هذا: يكونُ التحريفُ المقصودُ هو التأويلَ الباطلَ، فالتأويلُ من التحريفِ، يقول مثلًا: مجيءُ اللهِ ومجيءُ أمْرِهِ ومجيءُ ملائكتِهِ، فهذا تحريفٌ.

وقولُهُ: «**ونؤمِنُ بانتفاءِ كلِّ ما نفاهُ اللهُ تعالى عن نفْسِهِ**»؛ يعني أنَّ اللهَ يكونُ موصوفًا بالإثباتِ والنفيِ، فنَصِفُهُ بما وَصَفَ به نفْسَهُ، وننفي عنه ما نفَى عن نفْسِهِ ﷻ، ولكن كما سبق أنه لا يأتي في صفات اللهِ

ففي كلامِ اللهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ كمالُ العِلمِ والصِّدقِ والبَيانِ؛ فلا عُذرَ في رَدِّهِ أو التردد في قبوله.

نفيٌ خالصٌ، وإنما إذا جاءَ النفيُ فالمقصودُ بهِ نفيُ الشيءِ المعيَّنِ، وإثباتُ كمالِ ضِدِّ ذلكَ المنفيِّ.

فصل

وكلُّ ما ذكرناهُ مِن صفات الله تعالى تفصيلًا أو إجمالًا، إثباتًا أو نفيًا؛ فإننا في ذلك على كتابِ ربِّنا وسُنَّةِ نَبيِّنا مُعتَمِدونَ، وعلى ما سارَ عليه سَلفُ الأُمَّةِ وأئمَّةُ الهُدى مِن بعدهم سَائِرون.

ونرى وُجوبَ إجراءِ نُصوص الكتاب والسُّنَّة في ذلك على ظاهرها،

وقولُهُ: «**وكلُّ ما ذكرناه من صفاتِ اللهِ تعالى تفصيلًا أو إجمالًا، إثباتًا أو نفيًا؛ فإننا في ذلكَ على كتابِ ربِّنَا وسُنَّةِ نبيِّنا معتمدون**»؛ يعني ليسَ من آرائنا ولا من قياساتِنا، فلا نقولُ ذلكَ بالقياسِ ولا بالرأيِ، وإنما يجبُ أن يكونَ هذا اتِّبَاعًا لما قاله اللهُ وقاله رسولُهُ؛ لأنَّ هذا مِثلُ ما يقولُ، خبرٌ عن اللهِ وعن صفاتِهِ.

والأخبارُ أخبارٌ عن غيبٍ، فالشيءُ الغائبُ لا يجوزُ للإنسانِ أن يتكلمَ فيه إلا بعلمٍ يأتيه يُخبرُ به، وهناك الخبرُ وهناك الإنشاءُ، ومعناه الأمرُ؛ أي خَبَرٌ وأَمْرٌ، فأمرٌ لنا أن نعتقدَ هذا ونؤمِنَ به، أما مجردُ الخبرِ فلا يكفي.

فهو إخبارٌ من ربنا ﷻ؛ حتى نعتقدَ ذلك ونؤمِنَ به؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] يعني اعبدوهُ، عبادته ﷻ بأسمائهِ وصفاتهِ، وهذا يجبُ أن نتفقَّهَ فيه وأن نَعْلَمَهُ، وهو الذي يسميه بعضُ العلماءِ «الفِقْهَ الأكبرَ».

وقولُهُ: «**ونرى وجوبَ إجراءِ نصوصِ الكتابِ والسنةِ في ذلكَ على ظاهرها**»؛ ومعنى الظاهر: أي على ما يُفهَمُ من لفْظِها، يفهمه الذي يفهمُ

وحملِها على حقيقتها اللائقةِ بالله ﷻ.

ونتبرَّأُ من طريق المُحَرِّفينَ لها الذين صَرفُوها إلى غير ما أرادَ اللهُ بها ورَسولُهُ. ومِن طريق المُعَطِّلينَ لها الذين عَطَّلُوها عن مدلولها الذي أرادَهُ اللهُ ورسولُهُ. ومن طريق الغَالِينَ فيها الذين حَملُوها على التَّمثيلِ، أو تكلَّفُوا لمدلولِهَا التكييف.

اللغةَ العربيةَ؛ لأنَّ الظاهرَ أيضًا فيه زلَّاتٌ، وهناكَ مَن يقولُ: إنَّ الظاهِرَ يدلُّ على التشبيهِ، فمَن زَعَمَ أنَّ الظاهرَ يدلُّ على التشبيهِ فهذا الظاهر باطلٌ، وليس هو المرادَ.

ولكنَّ الظاهرَ الذي يدلُّ على اختصاصِ اللهِ بها وأنه لا مثيلَ له فيها، كما يأتي، ولأهلِ الباطل فيه مذاهبُ خلافَ الحقِّ.

وقوله: «**وَحَمْلِها على حقيقَتِها اللائقةِ بعظمةِ اللهِ وجلالِهِ**»؛ يعني حتى لا يكونَ الظاهرُ على ما يفهمهُ بعضُ الناسِ أنه مشابهةُ المخلوقِ، تعالى اللهُ وتقدَّس.

وقولُهُ: «**ونتبرَّأُ من طريقِ المحرِّفينَ لها الذين صرفوها إلى غيرِ ما أرادَ اللهُ بها**»، يقصد بذلك أهل التأويلِ مثلَ الأشاعرةِ وغيرِهم من المعتزلةِ الذين أوَّلوا صفاتِ الله ﷻ بأشياءَ تدلُّ على بُطلانِ ذلك.

فإذا جاءتْ من الصفاتِ مثل العلوِّ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أو ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أو ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، والرحمةِ والغضبِ والرضا، يقولونَ: يجبُ أن تُؤَوَّلَ أو تُفَوَّضَ، ويجبُ عليكَ أحدُ الأمرين فيها: [إما أن تُؤوِّلَها أو تُفوِّضَها].

ومعنى التفويضِ: أنك لا تفكِّرُ فيها، وأنها لا معنى لها، والذي يعلمُ معناها هو اللهُ، وقد يقولونَ: حتى جبريل لا يعلمُ معناها ولا يعرفُ معناها؛ ولهذا يكونُ التفويضُ أشرَّ من التأويلِ وأخبَثَ، وكلا الأمرينِ شرٌّ.

ونعلم عِلمَ اليقين أنَّ ما جاء في كتاب اللهِ تعالى أو سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ؛ فهو حَقٌّ لا يُناقِضُ بعضُهُ بعضًا، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

كيفَ يقولونَ هذا وهو باطلٌ، ثم يقولون: إنه يجبُ على العبدِ؛ لأنهم رأوا أن الظاهرَ تشبيهٌ، والتشبيهُ كفر؛ فلهذا أوجبوا التأويلَ أو التفويضَ، ومعلومٌ أنَّ هذا من الباطلِ الظاهرِ الذي لا يجوزُ أن يُعْتَقَدَ، ولكنْ إذا كانَ الإنسانُ قد جَزَمَ بأنَّ هذا هو المرادُ، والمقصودُ لأنه تربَّى على هذا الشيءِ فيصعُبُ عليه أن يأخذَ بما يقوله أهلُ السُّنَّةِ؛ ولهذا يسمُّونَ أهلَ السُّنَّةِ مشبهةً لهذا السببِ.

إذا أثبتَّ أنَّ اللهَ مستوٍ على العرشِ قالوا: أنتَ مُشَبِّهٌ، أو أثبتَّ أنَّ للهِ يَدَيْنِ، أو رِجْلَيْنِ، أو عَينَيْنِ قالوا: أنتَ مُشَبِّهٌ؛ لأننا لا نعرفُ منَ الاستواءِ إلا استواءَ الأجسامِ على الأجسامِ؛ لهذا لمَّا جاءَ أحدُ الخوارجِ وهو مِن قادَتِهِم مع زوجِهِ، وزوجُهُ كانت شجاعةً مثلَهُ تُقاتِلُ، سمعتْ قارئًا يقرأ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] قالتْ: محدودٌ على محدودٍ؟ تعني هذا كفرٌ باللهِ ﷻ، تعالى اللهُ وتقدَّسَ؛ هم لا يفهمونَ من صفاتِ اللهِ إلا ما يفهمونَ من ذواتهم وصفاتِهم.

قال: «**ونعلمُ عِلْمَ اليقينِ أنَّ ما جاءَ في كتابِ اللهِ تعالى أو سُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ فهوض حقٌّ لا يناقِضُ بعضُه بعضًا**»، التناقضُ أمرٌ موهومٌ عندَ كثيرٍ من الناسِ يُتَوَهَّمُ؛ ولهذا يُعيِّنُونَ شيئًا يوجبونَ القولَ به، فالأخبارُ التي يُخْبِرُ اللهُ ﷻ بها وهو علَّامُ الغيوبِ، وهو أعلمُ مِنْ خَلْقِهِ وأصْدَقُ حديثًا، فإذا أخبرَ بشيءٍ فهو حقٌّ، ولكنِ الإنسانُ قد يَنْبُو فَهْمُه، فإذا توهَّمَ أنَّ فيه شيئًا من التعارضِ فالواجبُ أن يَتَّهِمَ نفْسَهُ، ويقولَ: ما فهمتُ! ويسألَ أهلَ العلمِ؛ حتى يتبيَّنَ له، أمَّا أن يجزِمَ ويقولَ: هذا فيه تعارُضٌ،

ولأنَّ التناقُضَ في الأخبار يَستلزِمُ تكذيبَ بعضِها بعضًا، وهذا مُحالٌ في خبرِ اللهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ.

ومَنِ ادَّعى أن في كتابِ اللهِ تعالى أو في سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ أو بينهما تَناقُضًا فذلك لسُوءِ قَصدِهِ وزَيغِ قَلبِهِ؛ فليتُبْ إلى الله تعالى ولْيَنزِعْ عن غَيِّهِ.

ومَن تَوَهَّمَ التناقُضَ في كتابِ اللهِ تعالى أو في سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ أو بينهما، فذلك إما لقِلَّةِ عِلمِهِ، أو قُصور فهمِهِ، أو تقصيره في التَّدَبُّرِ، فليَبحَثْ عَنِ العِلم، ولْيجتَهِدْ في التَّدَبُّر حتى يَتبَيَّنَ له الحَقُّ، فإن لم يَتبيَّنْ له فَليَكِلِ الأمرَ إلى عالِمِهِ، ولْيَكُفَّ عن تَوهُّمِهِ، وليقُلْ كما يقولُ الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ولْيَعلَمْ أنَّ الكِتابَ والسُّنَّةَ لا تَناقُضَ فيهما ولا بينهما ولا اختلافَ.

فهذا لا يجوزُ، ويجبُ أن يكونَ مستقرًّا في علمِهِ وفي نفْسِهِ أنَّ كتابَ اللهِ مُتَّسِقٌ وأن بَعْضَهُ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وكذلكَ أحاديثُ الرسولِ ﷺ.

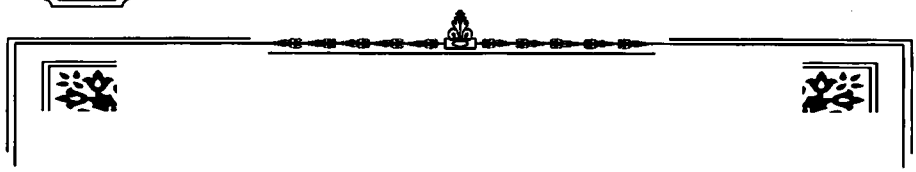

فصل

ونؤمن بملائكة الله تعالى وأنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧].

خلقَهُمُ اللهُ تعالى من نُورٍ، فقاموا بعبادته، وانقادوا لطاعته، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

وقولُه: «**خَلَقَهُمُ اللهُ تعالى من نُورٍ**» هذا جاءَ النصُّ عليهِ في حديثِ رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجِنُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»، ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٣٥] الشيطانُ، «وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا ذُكِرَ لَكُمْ»[1]، أنه من طِينٍ، خُلِقَ ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وهذا ليُبينَ ﷻ كمالَ قدرتِهِ أنه يَخْلُقُ ما يشاءُ من أيِّ مادةٍ؛ غيرَ أنَّ هذا يَدُلُّنَا على أنَّ المخلوقاتِ تكونُ من مادةٍ، فالملائكةُ خُلقتْ من النورِ ولهذا صاروا لا يُرَوْنَ، أما الشيطانُ: «فَخُلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ» اللَّهَبُ المختلِطُ بالدُّخَانِ.

والإيمانُ بالملائكةِ على ما وصَفَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ يعني أن نؤمِنَ بهم على سبيلِ الإجمالِ والتفصيلِ، الإجمالُ فيما أُجْمِلَ، والتفصيلُ فيما ذُكِرَ بعينِهِ، والتفصيلُ: إما أنْ يكونَ بأسمائِهم التي تُعَيِّنهم، أو بأعمالِهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

حجبَهُمُ اللهُ عنَّا فلا نراهم، وربما كَشفَهُم لبعض عباده، فقد رأى النَّبيُّ ﷺ جِبريلَ على صُورَتِهِ له ستمائة جناح قد سَدَّ الأُفُقَ، وتمثَّلَ جبريلُ لمريمَ بَشرًا سَويًّا فخاطبته وخاطبها، وأتى إلى النَّبيِّ ﷺ وعنده الصحابة بصورة رَجُلٍ لا يُعرَفُ ولا يُرَى عليه أثرُ السفر، شديدُ بَياضِ الثياب شديدُ سوادِ الشَّعر، فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ، ووضع كفيه على فخذيه، وخاطب النبي ﷺ، وخاطبه النبي ﷺ، وأخبر النبي ﷺ أصحابه أنه جبريل.

التي كُلِّفوا بها.

فمِنَ الأعمالِ مثلًا: الكتابةُ لكلِّ عبدٍ، يكون معه ملكان، أو أربعةٌ: «اثنان في النهارِ، واثنان في الليلِ».

والعلماءُ يقولونَ أيضًا: أكثرُ من أربعةٍ؛ لقولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، هذا لحفظِهِ هو وليس لحفظِ أعمالِهِ، معنى ذلكَ أنّ له ملائكةً يطوفونَ به؛ ولهذا يقولُ بعضُ العلماءِ: تجدُ الإنسانَ مثلًا في البرِّ ينامُ، والبرُّ كثيرُ الهوامِّ وكثيرُ النوامِسِ، فيفتحُ فاهُ أو عينيهِ وأُذُنيهِ ولا يأتيه أي شيءٍ؛ لأنَّ الملائكةَ تَذودُ عنه، فإذا جاء القدَرُ خلَّتْ بينه وبين ما قصده.

على كلِّ حالٍ: اللهُ ﷻ أخبَرَ أنَّ ملائكته كثيرونَ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] والرسولُ ﷺ يقولُ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»[1] وإلى يومِ القيامةِ.

فمنهم كثيرونَ خُلِقُوا للعبادةِ، ومنهم الذين كُلِّفوا بأعمالٍ مُعيَّنةٍ تتعلَّقُ ببني آدم، من سَوْقِ السحابِ، وإنزالِ الغيثِ، والنباتِ، والجبالِ، وغيرِهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٥)، والترمذي (٢٣١٢).

ونؤمن بأن للملائكة أعمالًا كُلِّفُوا بها، فمنهم جبريل المُوكَّل بالوحي، ينزلُ به مِن عند الله على مَن يشاءُ مِن أنبيائه ورُسُلِهِ. ومنهم ميكائيل: المُوكَّل بالمَطرِ والنَّباتِ. ومنهم إسرافيل: المُوكَّلُ بالنَّفخِ في الصُّورِ حين الصَّعقِ والنُّشورِ. ومنهم مَلكُ الموت: المُوكَّل بقبض الأرواح عند الموت. ومنهم مَلكُ الجِبالِ: المُوكَّل بها. ومنهم مالكٌ: خَازِنُ النَّار. ومنهم ملائكة مُوكَّلُون بالأجِنَّةِ في الأرحام. وآخرون مُوكَّلون بحفظِ بني آدم، وآخرون مُوكَّلون بكتابة أعمالهم، لكل شخص ملكان: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨]، وآخرون مُوكَّلون بسؤالِ المَيِّت بعد الانتهاء مِن تسليمه إلى مَثواهُ، يأتيه ملكان يسألانه عن ربِّه ودِينه ونَبيِّه فـ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

كما ثَبَتَ أنَّ الرسولَ ﷺ جاءَهُ جبريلُ وقال له: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟» يعني: جبليْنِ متقابليْنِ في مكةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعبد اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

فالجبالُ لها ملائكةٌ، والرياحُ لها ملائكةٌ، والسحابُ له ملائكةٌ، وهكذا، ولهذا يأتي ذِكْرُهم مجموعًا في كتابِ اللهِ كما قالَ ﷻ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾ [الصافات: ٢]، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

ومِنهمُ الملائكة المُوكَّلون بأهلِ الجنة: ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٤]، وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أن البيتَ المَعْمورَ في السماء يدخله، وفي روايةٍ يُصلِّي فيه كلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَكٍ، ثم لا يَعودُونَ إليه آخِرَ ما عليهم[1].

[المرسلات: ١]، فأتتْ بصيغةِ الجماعةِ المؤنثةِ، كما تقولُ: قالتِ العربُ، وقالتْ قريشٌ، وهذا جاءَ على اللغةِ الفصحى، وهذا يدلُّ على كثرتِهم.

وأما الذينَ يُذكرونَ بأسمائِهم مثل: جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، ومَلَكِ الموتِ، وخازنِ النارِ، وكذلك خازنُ الجنةِ، هؤلاءِ نؤمِنُ بأعيانِهم، ومثلُ ذلكَ: يقالُ في الرسلِ وفي الكُتُبِ.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

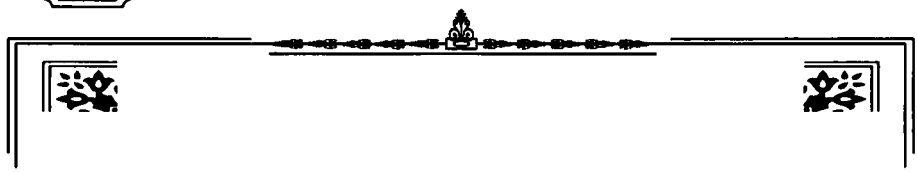

فصل

ونؤمن بأن الله تعالى أَنزلَ على رُسلِهِ كُتبًا حُجَّةً على العالمين ومَحَجَّةً للعامِلين، يُعلِّمونَهم بها الحكمةَ ويُزَكُّونهم.

قوله: «**ونؤمن بأن الله تعالى أَنزلَ على رُسلِهِ كُتبًا حُجَّةً**» نؤمِنُ بما ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ مثلَ: التوراةِ، والإنجيلِ، والزبورِ، والقرآنِ بعينه، والباقي نقولُ: نؤمِنُ بما أَنْزَلَ اللهُ من الكتابِ.

ومعنى «**نؤمنُ**»: أي نجزِمُ بأَنَّهُ هدًى ونورٌ لمَنْ قَبِلَهُ وعَمِلَ به، وأنَّ مَن كَذَّبَ وأبى فإِنَّهُ كافرٌ يُحرِقُهُ اللهُ بالنارِ، وأنه كلامُ اللهِ ﷻ تكلَّمَ به وأنزلَهُ على رُسُلِهِ، وكلُّها كلامُ اللهِ ﷻ، واللهُ يتكلَّمُ كلامًا يُسمع، يَسْمَعُهُ جبريلُ ويؤديهِ إلى الرُّسُلِ.

وكذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ قادرٌ على أن يخاطِبَ مَن يشاءُ؛ ولهذا فيومَ القيامةِ يخاطِبُ عبادَهُ يكلِّمهم، وكلُّ واحدٍ منَّا سوفَ يُكلِّمُه ربُّه، ليس بينهُ وبينهُ حِجابٌ ولا ترجمانٌ، ويقولُ: إنكَ فعلتَ كذا، وفعلتَ كذا، وعملتَ كذا، ويذكرُ له أعمالَهُ ويحاسبُهُ على ذلكَ، فقد تكونُ المحاسَبَةُ ميسَّرَةً وسهلَة. أما إذا نوقشَ فلا بد من العذابِ، كما قالَ ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ».

فقالتْ له عائشةُ: «أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا؟ قَالَ: ذَاكِ الْعَرْضُ»[1]، يعني أنها تُعرَضُ عليه أعمالُه فقطْ ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

ونؤمن بأن الله تعالى أنزلَ مع كلِّ رسولٍ كتابًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

يناقَشُ فيها، تعرَضُ عليه، ثم يقولُ اللهُ ﷻ: قد عَفَوْتُ عنكَ.

ثم جاءَ في الصحيحِ حديثُ ابنِ عمرَ وغيرِه، وكذلكَ قد يُخاطِبُ بعضَ عبادِهِ آخِرَ مَن يدخُلُ الجنةَ كما في الصحيح أن رَجُلًا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، يَبْقَى يُقَابِلُ النَّارَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَلْتَفِتَ، فَيَقُولُ يَدْعُو رَبَّهُ: «يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا»[1].

القشبُ هو الحرُّ، حرارتها الشديدةُ، فيقولُ اللهُ ﷻ له: لعلَّكَ تسألُ غيرَ هذا، فيُقْسِمُ باللهِ أنَّهُ لا يسألُهُ غير هذا، فيصرفُ وجهَهُ عن النارِ، فإذا صُرِفَ وجهُهُ عن النارِ يرى شجرةً خضراءَ ينظرُ إليها، فيتصبَّرُ ولكنه لا يصبرُ، فيسأل ربَّهُ، يا ربِّ أوصِلْني إلى تلكَ الشجرةِ أستظلَّ بظلِّها وأشربْ من مائها.

فيقولُ له ﷻ: ألم تُعْطِ العهدَ بأنكَ لا تسألُ غيرَ ما سألتَ! يقولُ: ربِّ لا تجعلْني أشقى خلْقِكَ، فيقول: لعلَّكَ أيضًا إذا وصلتَ إلى الشجرةِ تسألُ غيرَهَا، فيقولُ: لا وعزَّتِكَ لا أسألُكَ غيرَهَا، هكذا يتصوَّرُ أنه لا يسألُ غيرَها.

ولكنه يسألُ، وإذا وصلها رُفِعَ على شجرةٍ أحسَنَ منها فينظرُ إليها، ثم يسألُ: يا ربِّ أوصِلْني إلى تلكَ الشجرةِ لأستظلَّ بظلِّها وأشربَ من مائِها، يقولُ اللهُ ﷻ: ويلك يا ابنَ آدمَ، ما أكثرَ غَدْرَكَ، كلَّ مرة تُقْسِمُ وتَحْلِفُ ثُمّ تُخَالِفُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

ونعلم من هذه الكُتبِ:

أ ـ التوراة التي أنزلها اللهُ على موسى ﷺ، وهي أعظم كُتبِ بني إسرائيل: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فيقولُ: يا ربِّ، لا تجعلْنِي أشقى خَلْقِكَ، واللهُ يعذرُهُ؛ لأنهُ يرى ما لا صبْرَ له عنه، فإذا أعطاهُ زادَ، يقول: لعلكَ أيضًا إذا وصلتَ إلى تلكَ الشجرةِ تسألُ غيرَها، فيُقْسِم ويَحْلِف: لا وعزَّتك لا أسألك غيرها، فإذا وصلَ إلى الشجرةِ الأخرى، رأى الجنةَ، ثم ينفتحُ البابُ أمامَ ناظرَيْهِ ويرى ما في داخلها، فيسأل: يا ربِّ أدْخِلْنِي الجنةَ، فيقولُ اللهُ ﷻ: ألم تُعْطِ العهودَ أنك لا تسألُ غيرَ ما سألتَ؟ يقولُ: يا ربِّ لا تجعلْنِي أشقى خَلْقِكَ، فيقولُ اللهُ له: أترضى أن تكونَ لكَ الدنيا منذ خُلِقَتْ إلى أن فَنِيَتْ؟ يقولُ: لكَ مِثْلُ كلِّ نعيمٍ فيها، فيقولُ: أَتَسْخَرُ بي وأنتَ ربُّ العالمينَ.

أي: يستبعدُ هذا جدًّا؛ لأنه ما استحقَّ هذا، فضحكَ الرسولُ ﷺ وقالَ: ألا تسألوني ممَّ أضحكُ؟ قالوا: ممَّ تضحكُ؟ قال: أضحكُ من ضَحِكِ ربِّ العالمينَ، فإنهُ إذا قالَ له ذلكَ ضَحِكَ، قال: لا، لا أسخرُ منكَ، ولكني على ما أشاءُ قديرٌ، ثم يقولُ: لك ذلكَ وعشرةُ أمثالِهِ معَهُ، يقولُ: هذا هو أدنى أهلِ الجنةِ، أدناهم منزلةً، فكيفَ بأعلاهم.

فالمقصودُ: أنَّ اللهَ يُكَلِّمُ مَن يشاءُ، فهوَ الآنَ يكلِّمُ مَن يشاءُ من عبادِهِ من الملائكةِ، وقد جاءتِ النصوصُ في هذا، ويومَ القيامةِ يكلِّمُ مَن يشاءُ؛ ولهذا كان مِن عذابِ بعضِ الناس أنه لا يُكَلَّمُ، لا يكلِّمَهُ اللهُ ولا ينظرَ إليه، فهذا عذابٌ.

ب ـ الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى ﷺ، وهو مُصدِّقٌ للتوراة ومُتمِّمٌ لها: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

جـ ـ الزَّبُور الذي آتاه اللهُ تعالى داودَ ﷺ.

وكلُّ ذلكَ يدلُّ على إثباتِ الكلامِ للهِ، وأنهُ إذا شاءَ أن يتكلَّمَ تكلَّمَ، ولكنَّ أهلَ الباطلِ يُعَجِّزُونَ اللهَ، يجعلونهُ عاجزًا عن الكلامِ، تعالى اللهُ وتقدَّس، وينفونَ عنه الكلامَ؛ مع أنه كمالٌ، إثباتُ الكلامِ كمالٌ، ونَفْيُهُ نقصٌ.

واللهُ ﷻ له الكمالُ المطلَقُ، ولا يمكنُ أن يكونَ المخلوقُ أكملَ من الخالقِ تعالى اللهُ وتقدَّس؛ ولهذا عابَ اللهُ ﷻ على المشركينَ أنهم يعبدونَ ما لا يتكلَّمُ ولا يردُّ عليهم إذا سألوهُ، هذا عيبٌ ونقصٌ، ولا يكون مثلُ هذا معبودًا.

صفةُ الإيمانِ بالملائكةِ أنه على هذا النحو؛ يعني مُفَصَّلًا ومُجْمَلًا، وكذلكَ الإيمانُ بكُتُبِ اللهِ وبرسُلِ اللهِ على هذا النحو، فيه تفصيلٌ وإجمالٌ، فنؤمنُ بما ذُكِرَ بعَيْنِهِ ونؤمنُ بالبقيةِ على أنه حقٌّ تكلَّم اللهُ به وأنزَلَهُ إلى رُسُلِهِ.

ولهذا قالَ ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]

﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ يعني لا نؤمِنُ ببعضٍ ونكفُرُ ببعضٍ كما فعلتْهُ اليهودُ، أمَّا تعيينُ الكتبِ فهي التي جاءَ ذِكْرُها في القرآنِ فقطْ؛ هي التي نؤمنُ بها تفصيلًا بمعنى تعيينها فقط.

د ـ صُحُف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام.

هـ ـ القرآن العظيم الذي أنزلَهُ اللهُ على نبيِّهِ محمدٍ خاتم النبيين: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فكان: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فنَسَخَ اللهُ به جميعَ الكُتبِ السابقة له، وتَكفَّلَ بحفظِهِ عن عَبَثِ العابثينَ وزَيغِ المُحَرِّفينَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]؛ لأنه سيبقى حُجَّةً على الخَلْقِ أجمعين إلى يوم القيامة.

أما ما فيها من التفصيلاتِ فهذا لا نَعْرِفُهُ، وإنما نَعْرِفُ كلامَ ربِّنا في القرآنِ فقطْ، فهو الذي يجبُ أن نؤمِنَ بهِ، بكلِّ حرفٍ، من أولِّ الفاتحةِ إلى آخِرِ سورةِ الناسِ، ومَنْ كفَرَ بحرفٍ واحدٍ فهو كافرٌ باللهِ ﷻ.

أما بقيةُ الكتبِ فقد دَخَلَها التحريفُ والزيادةُ والنقصُ، ونحنُ لسنا على ثقةٍ بأنَّ هذا هو كلامُ اللهِ، ولكنْ في الجملةِ نعتبر التوراةَ والإنجيلَ كلام الله؛ ولهذا قالَ ﷺ: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»[1]؛ لأنه يجوزُ أن يكونَ حقًّا ويجوزُ أن يكونَ باطلًا، ونقولُ: آمنا بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ.

وقولُهُ عن القرآن: «**سيبقى حُجَّةً على الخَلْقِ**»؛ لأنَّ اللهَ ﷻ أنزلَهُ وحفِظَهُ، تولَّى حِفْظَهُ بنفسِهِ ﷻ، وهيَّأَ لهُ الأمَّةَ تحفظُهُ بلا عددٍ ولا إحصاءٍ، فإذا أردنا مثلًا أن نُحْصِيَ الناسَ الذينَ يحفظونَ القرآنَ الآنَ، هلْ يمكنُ؟ أيمكنُ أن نُحصيَهُم؟

لا يمكنُ أبدًا؛ لأنهم ملءُ الأرضِ في أقطارٍ شتَّى، في كلِّ قُطْرٍ مَن يحفظونَ، لو أرادَ إنسانٌ مثلًا أنْ يُغَيِّرَ حرفًا في القرآنِ، هلْ يستطيعُ؟ لا

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٢٥)، وأبو داود (٣٦٤٤).

وأمَّا الكُتبُ السابقة فإنها مُؤقَّتةٌ بأَمَدٍ ينتهي بنزول ما ينسخها ويُبَيِّنُ ما حصل فيها من تَحريفٍ وتغيير؛ ولهذا لم تكُنْ معصومةً منه، فقد وقع فيها التحريفُ والزيادةُ والنقصُ، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩]، ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ

يستطيعُ أبدًا؛ لأنَّهُ محفوظٌ في الصدورِ ومكتوبٌ في المصاحفِ.

الرسولُ ﷺ أَمَرَ به أنْ يُكتَبَ، ويُحفَظَ أيضًا، فلمَّا استحرَّ القتلُ في حَفَظَةِ القرآنِ وقُتِلَ منهم في واقعةِ اليمامةِ سبعونَ حافظًا من الصحابةِ، قال الصحابةُ: يوشكُ أن يتسارعَ حفظةُ القرآنِ إلى القتلِ فيذهبَ شيءٌ من القرآنِ، فلنكتبْهُ.

صاروا يكتبونَ الشيءَ الذي اتفقوا على حفظِهِ ووجدوه مكتوبًا، هذا معنى كونِ زيدِ بنِ ثابتٍ يقولُ: وجدتُ آيةَ كذا وكذا في كذا، ومع فلانٍ وفلانٍ، يعني آيةً واحدة ولا البقية كلها كانوا يحفظون ألفاظَها، ويحفظون أيضًا معانيَها، وهي أيضًا مكتوبةٌ عندهم ومسجَّلَة.

ثم بعد ذلك لمَّا تفرَّقَ الصحابةُ في البلادِ وصار كلٌّ يقرأُ بالقراءةِ التي أقرأَهُ الرسولُ ﷺ بها، والقرآنُ نزلَ على سبعةِ أحرُفٍ كلُّ حرفٍ كافٍ شافٍ، صارَ خلافٌ بينَ الناسِ، كلُّ واحدٍ يقولُ: أَقْرَأَنِي فلانٌ من الصحابةِ وقراءتُهُ على خلافِ قراءتِكَ.

فأتى حذيفةُ إلى عثمانَ رضي الله عنه وقال: أَدْرِكِ الأمَّةَ قبلَ أن تختَلِفَ، فالناسُ صاروا يختلفونَ فيما بينهم، يقولون: قراءةُ فلانٍ غيرُ قراءةِ فلانٍ؛

لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨ ـ ٧٩]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، إلى قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

يعني من الصحابة، فجمعَ الصُّحفَ وأمَرَهم أن يكتبوها بحرفِ قريشٍ.

ثم بعدَ ذلكَ أحرقَ الصحفَ كلَّها وأبقى المصاحفَ التي كُتِبَتْ، فصارَ الموجودَ الآن حرفٌ واحدٌ فقطْ، وبقيةُ الحروفِ راحتْ، وهذا من فضلِ اللهِ، ومن حِفْظِ اللهِ للقرآنِ؛ حتى لا يكونَ اختلافُ نزولِهِ في السبعةِ الأحرف في وقتِ الحاجةِ؛ ثمَّ توافرتِ الأمَّةُ على حفظهِ وكتابتهِ. لئلا يحدثَ خلافٌ في معانيهِ.

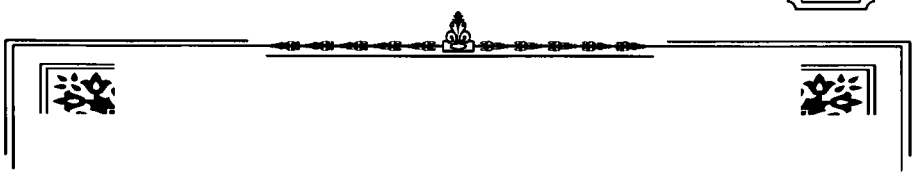

فصل

ونؤمن بأنَّ الله تعالى بَعثَ إلى الناس: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

ونؤمن بأن أوَّلَهم نوحٌ، وآخرُهم مُحمَّدٌ صلى الله عليهم وسلم أجمعين.....

وهذا على ما سبقَ: فإننا نؤمن بالرسل على وجهِ الإجمالِ والتفصيلِ، والإجمالُ فيما لم يُفَصَّل؛ لأنَّ اللهَ أخبرنا أنه قصَّ علينا رسلًا، وأن هناك آخرين لم يَقْصُصْهم علينا، فنؤمِنُ بأنهم جاؤوا إلى قومِهم مُبشِّرين ومنذِرين، مبشرين مَن آمَنَ بهم واتَّبَعَهُم بالجنةِ والسعادةِ في الدنيا والآخرةِ، ومُنذِرين مَن خالَفَهم بعذابِ اللهِ ﷻ الذي يصيبهم في الدنيا وفي الآخرة.

فهم جاؤوا لسعادةِ البشرِ، فمن قَبِلَ منهم سَعِدَ، ومَن ردَّ دعوتهم شقِيَ في الدنيا والآخرةِ، فالذينَ ذُكروا في القرآنِ خَمْسَةٌ وعشرونَ، بعضُ العلماءِ يقولُ: يجبُ على كلِّ عبدٍ أن يعرِفَ أسماءهم ويؤمِنَ بهم؛ لأنَّ اللهَ ذكرهم بأسمائهم.

قولُه: «**وَنُؤمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى بعَثَ إلى الناسِ رسلاً...**» هذا كثُرَ ذِكْرُه في كتابِ اللهِ ﷻ، فهوَ يُلزِمُ الإنسانَ بأنْ يؤمِنَ بالرسلِ.

وقولُهُ: «**بأنَّ أوَّلَهم نوحٌ وآخِرَهم محمدٌ صلى الله عليهم وسلم**»؛ يعني تبعًا لما أخبرَ اللهُ ﷻ بهِ، لا بد أن يكونَ الإيمانُ له دليلٌ واضحٌ من

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وأن أفضلَهم مُحمَّدٌ، ثم إبراهيمُ، ثم مُوسى، ثم نوحٌ وعيسى ابن مريم، وهم المُخصُوصون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧].

كتابِ اللهِ وأحاديثِ رسولِهِ ﷺ.

أما التفضيلُ بينَ الرسلِ؛ فيجبُ أن يكونَ للعلمِ فقطْ، وليسَ لنصبِ الخلافِ بينهم أن يقولَ فلانٌ مثلًا ما قد يُفهم منه فظاظةٌ على أحدٍ؛ فإنَّ هذا من المحرَّماتِ.

قولُه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] فجعلَ النبيينَ كلَّهم بعد نوحٍ، فأول الأنبياء آدم، وما بين آدمَ ونوح ليسَ هناكَ رسل؛ لأنهم على التوحيدِ، وإنما أُرْسِلَتْ إليهم رسلٌ لمَّا طرأ الشركُ عندهم.

والأصلُ: أنهم يعبدونَ اللهَ وحدهُ لا يشركونَ به شيئًا، كما جاءَ عنِ ابنِ عباسٍ أن بينَ نوحٍ وآدمَ عشرةَ قرونٍ كلُّهم على التوحيدِ، ثم طرأَ الشركُ لحادثٍ حدثَ، كما ذُكِرَ في صحيحِ البخاريِّ[1]، أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ

---

(١) أخرج البخاري (٤٩٢٠)، ولفظه: عن ابن عباس ﷺ قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت».

ونعتقد أن شريعةَ محمدٍ ﷺ حاويةٌ لفضائل شرائع هؤلاء الرسل المخصوصين بالفضل؛ لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ

نَاسٌ قَادَةٌ لَهُمْ، وَيَقْتَدُونَ بِهِمْ، عُلَمَاءُ وَمُجْتَهِدُونُ، فَمَاتُوا فِي وَقْتٍ مُتَقَارِبٍ، فَأَسِفُوا عَلَيْهِمْ وَحَزِنُوا عَلَيْهِمْ، فَجَاءَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ نَاصِحٍ وَقَالَ: لَوْ صَوَّرْتُمْ صُوَرَهُمْ فنصبتموها فِي مَجَالِسِهِمْ فَإِنَّكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُوهَا تَذَكَّرْتُمْ أَفْعَالَهُمْ فَعَمِلْتُمْ عَمَلَهُمْ، فَاسْتَحْسَنُوا هَذَا، فَكَانُوا عَلَى هَذَا وَقْتًا طَوِيلًا؛ حَتَّى مَاتُوا.

وَجَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ وَنُسِيَ السَّبَبُ الَّذِي مِن أَجْلِهِ صَوَّرُوا هَذِهِ الصُّوَرَ، فَجَاءَهُمُ الشَّيْطَانُ وَقَالَ: آبَاؤُكُمْ مَا صَوَّرُوا هَذِهِ الصُّوَرَ إِلَّا لِيَتَقَرَّبُوا بِهَا إِلَى اللهِ، يَسْأَلُونَهَا وَيَسْتَشْفِعُونَ بِهَا، فَهَذَا مَبْدَأُ الشِّرْكِ[1].

فأرسلَ اللهُ ﷻ نوحًا يدعوهم إلى التوحيدِ فأَبَوْا، وقدِ انتشرتِ الآلهةُ عندهم؛ ولهذا قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ آلهتكم هذا مجملٌ، كلُّ الآلهةِ، لا تتركوها لقولِ نوحٍ، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

فنصُّوا على هذهِ؛ لأنَّها هي الكبار، والبقيةُ تمسَّكُوا بها، فمَا آمَنَ معه إلا قلَّةٌ، ثم تتابعتِ الرسلُ بعد ذلكَ؛ لأنَّ كلَّ جيلٍ يأتي يطرأُ عليه الشركُ، فكثُرَ الشركُ في الأممِ؛ حتى في هذه الأمةِ فالشركُ موجودٌ بكثرةٍ.

وقوله: «**وَنَعْتَقِدُ أَنَّ شريعةَ محمدٍ ﷺ حاويةٌ لفضائلِ شرائعِ الرسلِ**» السابقينَ؛ يعني أنها أكملُ من الشرائعِ السابقةِ؛ لقولِ اللهِ ﷻ: ﴿شَرَعَ

---

(١) ويعضد هذا ما أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٣٠٣) عن محمد بن قيس، ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوَقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَون المطر، فعبدوهم.

نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ونؤمن بأن جميعَ الرُّسلِ بشرٌ مخلوقون، ليس لهم مِن خصائص الربوبية شيءٌ، قال الله تعالى عن نوحٍ، وهو أولُهم: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ

لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله: ﴿أَقِيمُوا﴾ أي: اعملوا بهِ كما أمركمُ اللهُ ﷻ واجتمِعوا عليهِ واعتصِموا به ولا تَفرَّقوا، وهذا يدلُّ على أنه كاملٌ، أنه أكملُ الأديانِ كما نصَّ عليه رسول الله ﷺ.

أما أفضلُ الرسلِ فقد أخبرَنَا رسولُنا ﷺ أنهُ أفضلُهم، وإبراهيمُ عليه السلام كذلكَ من الذين نُصَّ عليهم؛ لأنه خليلُ اللهِ، وموسى كذلكَ؛ لأنَّ اللهَ فضَّلَهُ بكلامِهِ.

فقولُ العلماءِ: إنَّ منهم أولي عزم، ومنهم مَن ليسَ مِن أولي العزم؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فدلَّ على أنَّ بعضَهُم لهُ عَزْمٌ وغيرهم ليسَ لهُ عزمٌ، وقالَ ﷻ في آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]؛ لأنه أكلَ من الشجرةِ التي نُهيَ عنها.

وقولُهُ: «**حاويةٌ لفضائلِ الشرائعِ**»؛ لذكر الله ﷻ أنَّ القرآنَ نزلَ مهيمنًا على الكتبِ السابقةِ، ومعنى الهيمنةِ أنه حَوَى كلَّ ما فيها وزادَ على ذلكَ، وهو أيضًا أكملُها وأتمُّها فيما يحتاجُ إليه الناسُ، فليسَ هناكَ شيءٌ يحتاجونه إلا وهو في كتابِ اللهِ، غيرَ أنه يحتاجُ إلى الفهمِ.

قوله: «**ونؤمِنُ بأنَّ جميعَ الرسلِ بشَرٌ**» يعني أنهم مِثْلُ الناسِ، ليسَ لهم من الربوبيةِ شيءٌ، ولا من الإلهيةِ شيءٌ، وإنما فضَّلَهُم اللهُ ﷻ، وخصَّهُم بالوحيِ الذي كَلَّفَهُم بهِ، ففُضِّلُوا بهذا.

عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وأمرَ اللهُ محمدًا ـ وهو آخرهم ـ أن يقولَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وأن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وأن يقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢٢].

ونؤمِنُ بأنهم عبيدٌ قاموا بعبادةِ اللهِ حسَبَ استطاعتهم، وهم أفضلُ الناسِ وأزكاهم وأقربُهم إلى اللهِ ﷻ، وبعضُهم أفضلُ من بعضٍ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ومع ذلكَ لا يجوزُ أن يقولَ الإنسانُ: فلانٌ أفضلُ من فلانٍ، يعني من الرسلِ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ يقول: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ»(١).

والسببُ في هذا: أنه قد يكونُ هناك تعصُّبٌ، أو تكونُ عندَ التفضيلِ ملاحظةٌ تنقصُ أحدًا منهم، وهذا من الكفرِ باللهِ ﷻ.

ففي الصحيح: عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: اسْتَبَّ رجُلانِ: رَجُلٌ من المسلمينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ المُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ المُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ المُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).

. . . . . .

كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ»[١].

فدلَّ هذا على أنهُ إذا كان هناكَ شيءٌ من التعصبِ لأحدٍ أن هذا لا يجوزُ؛ لأنه قد يحدثُ بهذا تنقُّصٌ لبعضِ الرسلِ، أما إذا ذُكرَ ما ذكره اللهُ ﷻ من الفضلِ فهذا هو الذي يجوزُ أو يَجِبُ.

وبعضَ الناسِ يقولُ عنهم: إنهم نورٌ وإنهم ليسوا كالبشرِ، واللهُ ﷻ يقولُ لنبيِّهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] فميَّزَهُ بالوحيِ.

وكذلكَ بعضُ الناسِ جعلوا لهم ما للهِ، أو شيئًا مما للهِ ﷻ، وقد تبرؤوا من ذلكَ، وأمرهم أن يقولوا: «لا نعلمُ الغيبَ ولا نملِكُ من خزائنِ اللهِ شيئًا»، ويجبُ على العبدِ أن يؤمنَ أن المُلْكَ كلَّهُ للهِ والتصرفَ له والعبادةَ له.

فإذا جاءَ مَن يضيفُ إلى الرسولِ شيئًا من ذلكَ فهو مخطئٌ وضالٌّ في هذا، كما يقعُ لكثيرٍ من الذينَ يكونُ نصيبُهم من الرسولِ هو المدحَ الكاذبَ، وقد نهى عن ذلكَ رسول الله ﷺ وحذَّرَ منه وقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[٢].

وقد بلَّغَ ﷺ البلاغَ المبينَ، ولا عُذْرَ لمَن خالف هذا، فإذا جاءَ مثلُ ذلك قالوا: إنَّ هذا من بابِ التواضُعِ وكذا وكذا إلى آخره..

كلُّ ذلكَ من طُرُقِ الشيطانِ التي يدخلُ بها على الناسِ؛ حتى يَحْرِفَهُم عن الحقِ، وهذا يقوله كلُّ رسولٍ، يتبرأ مما للهِ ويخبرهم بأنه رسولٌ

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).
(٢) أخرجه أحمد (١٣٥٢٩)، وأبو داود (٤٨٠٦).

ونؤمن بأنهم عبيدٌ من عباد الله، أكرمَهم اللهُ تعالى بالرسالة، ووصفهم بالعبودية في أعلى مقاماتهم وفي سياق الثناء عليهم، فقال في أولهم نوح: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

وقال في آخرهم محمد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال في رُسلٍ آخرين: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، وقال في عيسى ابن مريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩].

مكلَّفٌ من اللهِ ﷻ ولا يملكُ مع اللهِ شيئًا.

وقولُهُ: «**ونؤمِنُ بأنَّهُمْ عبيدٌ**» يعني: أنهم مكلَّفُونَ بالعبادةِ ولم تُرْفَعْ عنهمُ التكاليفُ؛ ولهذا فهم أكملُ الناسِ عبادةً وأتمُّهم كما جاءتِ الأحاديثُ والنصوصُ في ذلكَ، وكثيرًا ما يقولُ الرسولُ ﷺ: «أَنَا أَتْقَاكُمْ للَّهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ»[(١)].

ويقول: «وَاللهِ إني أهلكخك بالله، وأشدهم له خشية»[(٢)]، ومَنْ كَانَ أعلمَ باللهِ فهو أقوَمُ بأمْرِهِ مِن غيرِهِ، وأتمُّ عبادةً من غيرِهِ.

ولهذا أَمَرَنَا بالتأسي به صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه لِمَنْ يستطيعُ ذلكَ، والغالبُ: أنَّ الناسَ لا يستطيعونَ أنْ يأتوا بمثلِ ما جاءَ به، ثم أثنى اللهُ على رسلِهِ بأنهم قاموا بالأمرِ الذي كُلِّفُوا به.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٦٧)، ومسلم (١٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

ونؤمن بأن اللهَ تعالى ختم الرسالات برسالةِ محمد ﷺ، وأرسلَهُ إلى جميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ونؤمن بأن شريعتَهُ ﷺ هي دينُ الإسلام الذي ارتضاهُ اللهُ تعالى لعباده، وأن اللهَ تعالى لا يقبلُ من أحدٍ دِينًا سِواهُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقولُهُ: «**ونؤمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى ختمَ الرسالاتِ برسالةِ محمدٍ ﷺ**» فهوَ آخِرُ الرسلِ وليسَ بعدَهُ رسولٌ، أما عيسى عليه السلام فإنه ثبتَ بلْ تواتَرَ أنه ينزِلُ في آخِرِ هذه الأمَّةِ، ولكنه ينزلُ حاكمًا بهذهِ الشريعةِ.

فهوَ مِن هذهِ الأمَّةِ، فشريعةُ نبيِّنا ﷺ هيَ دينُ الإسلام الذي لا يقبلُ الله دينًا غيرَهُ، ومَنْ تَدَيَّنَ للهِ ﷻ بدينٍ آخرَ غيرِ هذا فهوَ كافرٌ هالكٌ في جهنمَ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ويقولُ ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وإنْ كانَ الإسلامُ يُطلَقُ على كلِّ دينٍ فيهِ عبادةُ اللهِ والاستسلامُ له والانقيادُ لهُ، كما أخبرَ اللهُ ﷻ، ولكنَّ هذا يُقصَدُ به الدينُ الذي جاءَ بهِ رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقولُ: «وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»[1].

هذا كما قالَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ الذي فيهِ أنَّ اللهَ أخذَ ميثاقَ النبيِّينَ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٧٥)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٦).

.....

أنه إذا جاءَهُم نبيٌّ أن يؤمنوا به ويتَّبِعوه، وأكَّدَ هذا قولُهُ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١] يعني أنكم عَلِمْتُم هذا، وتأكَّدَ لديكم، فصارَ عهدًا يجبُ أن تَفُوا به.

واللهُ ﷻ بعثَ محمدًا ﷺ إلى الناسِ كافةً وللجنِّ، ومعلومٌ أنه ﷺ من العربِ ولغتُهُ عربيةٌ، وأُرْسِلَ إلى العربِ والعَجَمِ وإلى كلِّ أحدٍ.

فمعنى ذلك: أنه يجبُ عليهم أن يتعلموا لُغَتَهُ؛ حتى يعرفوا رسالتَهُ، فشرعُهُ ﷺ هو الذي خُتِمَتْ به الشرائعُ كلُّها، وعلى أمَّتِه تقومُ الساعةُ وتنتهي الدنيا؛ ولهذا سُمِّيَ نبيَّ الساعةِ، وكان ﷺ يقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، ويشيرُ بأصبعيْهِ[1]، يعني واحدةً ملاصقةً للأخرى.

فمَنْ كَفَرَ برسالتِهِ فهوَ في النارِ، والذي يزعمُ أنَّ هناكَ طريقًا إلى الجنةِ غيرَ شريعتِهِ ومِلَّتِهِ التي جاءَ بها فهوَ كافرٌ باللهِ ﷻ وضالٌّ، وسوفَ يُصْلِيه اللهُ ﷻ جهنَّمَ، وبئسَ المصيرُ.

فَمَنِ ادَّعَى نبوةً لأحدٍ أو لنفسِهِ فهو كافرٌ بكتابِ اللهِ ﷻ فيما يقوله، وإذا اعتقدَ معتقدٌ أنَّ الدينَ الذي هو غيرُ دينِ الإسلامِ أنه ينجوُ به فهوَ كافرٌ باللهِ ﷻ، ويجبُ أن يُستتابَ إنْ كان مسلمًا، فإنْ تابَ وإلا قُتِلَ.

أي: يجبُ على مَنْ كانَ بيدِهِ الأمرُ أن يستتيبَهُ، فإنْ تابَ ورجعَ إلى الحقِّ وإلا قُتِلَ كافرًا مرتدًّا، ثم كذلك يقولُ: إن الرسولَ ﷺ توفَّاهُ اللهُ ﷻ، لقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]

هذا أيضًا من الأمورِ التي يجبُ الإيمانُ بها؛ لأنَّ اللهَ ﷻ نصَّ على ذلكَ، وقد زَعَمَ بعضُ الناسِ بعدها أنه لو كانَ نبيًّا ما ماتَ، وهذا من

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٦).

. . . . . .

الشيطانِ؛ فالأنبياءُ كلُّهم يموتون؛ لأنهم بشرٌ.

كلُّهم بشرٌ؛ فلهذا نَصَّ شيخُ الإسلامِ على ذلكَ، يقول: إنَّ هذا من الأمورِ التي يجبُ أن يؤمَنَ بها وتُعْتَقَدَ، ودينُهُ باقٍ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ اللهَ حَفِظَ ما أنزلَهُ إليهِ من الكتابِ ومنَ الأحاديثِ.

ولهذا تبقى طائفةٌ من أمَّتِهِ على الحقِّ الذي جاءَ به لا يضرُّها المخالِفُ ولا المُعادي، ولا بد لهم من مُخالفٍ ومُعادٍ، ولكنهم يَثْبُتُونَ على الحق، وبهذا تقومُ الحُجَّةُ على الناسِ أنه إذا عُمِلَ بالشرعِ وأقام بهِ مَنْ يقومُ فيكفي هذا للحُجَّةِ. أمَّا الجنُّ فإنهم أيضًا مُكَلَّفُونَ باتِّبَاعِهِ والإيمانِ به، وإنْ لم يفعلوا ذلكَ فهم في النارِ.

وقدْ صرَفَ اللهُ ﷻ جماعاتٍ من الجنِّ إليه؛ حتى يحفظوا القرآنَ ويُبَلِّغُوهُ قومهم كما قالَ ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] يعني إلى القرآنِ، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]

قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩] يعني ينذروهم.

فمنهم النُّذُرُ الذين يأخذون عنِ الرُّسُلِ فقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] لماذا قالوا: ﴿مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، ولم يقولوا من بعدِ عيسى؟

لأنَّ عيسى جاءَ بتكملةِ الشرعِ السابقِ له، وبينَ عيسى وموسى أنبياءُ كثيرونَ، ينزلُ عليهم بعضُ الوحي ولكن في أمورٍ خاصَّةٍ، والتوراةُ هي التي نزلتْ على بني إسرائيلَ وبقيتْ، والإنجيلُ مُكَمِّلٌ لها ومُخَفِّفٌ بعضَ التكاليفِ التي كُلِّفُوا بها.

ونرى أن من زعم اليومَ دِينًا قائمًا مقبولًا عند الله سِوى دينِ الإسلامِ، مِن دِينِ اليهودية أو النصرانية أو غيرهما؛ فهو كافِرٌ يُستَتابُ، فإن تابَ وإلا قُتِلَ مُرتدًّا، لأنه مُكَذِّبٌ للقرآن. ونرى أن مَن كَفَرَ برسالة مُحمَّدٍ ﷺ إلى الناس جميعًا فقد كفر بجميع الرُّسلِ، حتى برسولِهِ الذي يزعم أنه مُؤمِنٌ به مُتبِّعٌ له؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء: ١٠٥].

فجعلَهُم مُكذِّبين لجميعِ الرُّسُلِ مع أنه لم يسبقْ نُوحًا رسولٌ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

ونؤمن بأنه لا نبيَّ بعد محمدٍ رسول الله ﷺ، ومَنِ ادَّعى النُّبوَّةَ بعده أو صَدَّقَ مَنِ ادَّعاها؛ فهو كافر؛ لأنه مُكذِّبٌ للهِ ورسولِهِ وإجماعِ المُسلِمِينَ.

ونؤمنُ بأنَّ للنبيِّ ﷺ خلفاءَ راشدين خلفوه في أمَّتِهِ عِلمًا ودعوةً ووِلايَةً على المؤمنين، ....

يقولُ: «**وَنَرَى أنَّ مَنْ كَفرَ برسالةِ محمدٍ ﷺ إلى الناس جميعًا**» يعني عمومَ الرسالةِ، أنهُ كافر لنصِّ اللهِ ﷻ على هذا، «**ونؤمن بأنه لا نبيَ بعد محمدٍ**» صلوات اللهُ وسلامُه عليه؛ لأنَّ للنبيِّ ﷺ خلفاءَ خَلَفُوهُ.

قوله: «**ونؤمنُ بأنَّ للنبيَ ﷺ خلفاءَ راشدين**»، والخلافةُ مُدَّتُها ثلاثونَ سنةً كما جاءَ في حديثِ سفينةَ[(١)]، وكَمُلَتْ مُدَّةُ الخلافةِ بخلافةِ الحسنِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩١٩)، وأبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (٨٠٩٩).

وبأن أفضلَهم وأحقَّهم بالخلافةِ أبو بكر الصِّدِّيقُ، ثم عمرُ بنُ الخَطَّابِ، ثم عُثمَانُ بنُ عفَّانَ ثم عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ، ﷺ أجمعين.

وهكذا كانوا في الخلافة قدرًا كما كانوا في الفضيلة، وما كان اللهُ تعالى ـ وله الحكمةُ البالِغةُ ـ ليوليَ على خيرِ القرونِ رجلًا، وفيهم مَنْ هو خيرٌ منه وأجدرُ بالخلافة.

ونؤمن بأنَّ المفضولَ من هؤلاء قد يَتميَّزُ بخصيصَةٍ يفوقُ فيها مَنْ هو أفضلُ منه، لكنه لا يَستحقُّ بها الفضلَ المُطلَقَ على مَنْ فَضَلَهُ؛ لأن مُوجِباتِ الفَضلِ كثيرةٌ مُتنوِّعَةٌ.

ونؤمن بأن هذه الأمة خيرُ الأمم وأكرمُهَا على الله ﷻ؛ لقوله

ابنِ عليٍّ ﷺ، وتنازلَ عن الخلافةِ بعدَ ما كملتْ ثلاثونَ سنةً، وصارَ بعدَ ذلكَ مُلكٌ وليسَ خلافةً، وأوَّلُ ملوكِ المسلمينَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ ﷺ. فتسميةُ الإنسانِ خليفةً الآنَ هوَ منْ بابِ التجوُّزِ.

قوله: «**وبأن أفضلَهم وأحقَّهم بالخلافةِ أبو بكر الصِّدِّيقُ**» كما جاءت النصوصُ في هذا، ثم الخلفاءُ على الترتيبِ الذي وَقَع قَدَرًا من اللهِ ﷻ أنه قَدَّرَهُ، فَأَوَّلُهُم أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانَ، ثم عليٌّ ﷺ.

والصحيحُ: أنَّ فَضْلَهُم أيضًا على هذا الترتيبِ؛ لأنَّ الصحابةَ اتَّفَقُوا على تقديمِ عثمانَ على عليٍّ؛ ولهذا قالَ كثيرٌ من السَّلَفِ: مَنْ فضَّلَ عليًّا على عثمانَ فقد أَزرَى بالصحابةِ كُلِّهِم، وأَزرَى أي: تَنَقَّصَهُمْ، حيث يرى أنَّ اتفاقَهُم واختيارَهُم على غيرِ وجهٍ.

وكذلكَ يقولُ: «**ونؤمن بأنَّ المفضولَ من هؤلاء قد يَتميَّزُ بخصيصَةٍ يفوقُ فيها مَنْ هو أفضلُ منه**» أي: أنَّ المفضولَ قد تكونُ له خصيصةٌ يَفْضُلُ بها غَيْرَهُ، ولكنْ لا يكونُ له الفضلُ الْمُطْلَقُ.

يقولُ: «**هذهِ الأمَّةَ خَيْرُ الأمَمِ**»، وقد جاءَ النص على هذا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ

تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ونؤمن بأن خيرَ هذه الأُمَّةِ الصحابةُ، ثم التابِعُونَ، ثم تابعوهم، وبأنه لا تَزالُ طائفةٌ مِن هذه الأُمَّةِ على الحقِّ ظاهِرينَ لا يضرُّهُم مَنْ خَذلَهُم أو خَالَفَهُم حتى يأتِيَ أمرُ اللهِ ﷻ.

ونعتقدُ أنَّ ما جَرى بين الصحابة ﷺ مِنَ الفِتنِ، فقد صَدرَ عن تأويلٍ اجتهدوا فيه، فمَنْ كان منهم مُصِيبًا كان له أجران، ومَنْ كان منهم مُخطِئًا فله أجرٌ واحِدٌ، وخَطؤُهُ مَغفُورٌ له.

ونرى أنَّهُ يجِبُ أن نَكُفَّ عن مَساوِئهم، فلا نَذكُرُهُمْ إلا بما

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأوَّلُ مَنْ يدخلُ في هذا الخطابِ صحابةُ الرسولِ ﷺ، فهُمْ مخاطَبُونَ بذلكَ.

قوله: «**ونؤمن بأن هذه الأمة خيرُ الأمم وأكرمُهَا على الله**» فهُمْ خيرُ الأمَّةِ وأَفْضَلُهَا، ولا يكونُ مَثْلَهُمْ أَحَدٌ إلا الأنبياءُ، فَهُمْ أَفْضَلُ البشَرِ بالنصوصِ التي جاءتْ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الّذينَ يَلونَهُمْ، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُمْ»(١)، وفي لفظٍ آخر: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(٢).

ويجبُ حُبُّهُم ومُوَالاتهم والدعاءُ لهم، كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [الحشر: ١٠].

ويجبُ ألا يكونَ في قلبِ الإنسانِ غِلٌّ أو حِقْدٌ عليهم، بلْ يجبُ أن يَسْلَمَ صَدْرُهُ لهم، ويَعْلَمَ أنهم اختارهم اللهُ ﷻ لصُحْبَة نبيِّهِ ﷺ والجهادِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٣٤).

يَستَحَقُّونَهُ مِنَ الثناءِ الجميلِ، وأن نُطهِّرَ قُلوبَنا مِنَ الغِلِّ والحِقدِ على أحدٍ منهم؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

وقولِ اللهِ تعالى فينا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

في سبيلِ اللهِ، والذَّوْدِ عنْ دينِ اللهِ؛ ولهذا يقولُ ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ إلى آخرِ الآيةِ [الفتح: ٢٩].

نسألُ اللهَ ﷻ أن يجعلَنا من الذينَ: ﴿جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فصل

ونؤمنُ باليوم الآخرِ، وهوَ يومُ القيامةِ الذي لا يومَ بعدَه، حين يُبعث الناسُ أحياءً للبقاءِ، إمّا في دارِ النعيمِ، وإمّا في دارِ العذابِ الأليمِ.

قوله: «**اليومُ الآخِرُ**» سمي بذلك لأنهُ بعدَ الدنيا، وجُعل يومًا؛ لأنه ليسَ فيه ليلٌ ونهارٌ، فأهلُ الجنةِ في ضياءٍ ونورٍ من نورِ اللهِ ﷻ، وأهلُ النارِ في ظلام وفي عذابٍ مستديم أبَدَ الآبِدِينَ، وهذا يبدأُ مِنَ الموتِ، فإذا انتهى أجَلُ الإنسانِ وماتَ بدأَ اليومُ الآخِرُ ويبدأُ بجزاءِ العملِ جزاءً لأعمالِهِ.

قوله: «**يبعث الناس**» البعث في اللغة: إثارةُ الشيءِ من مكانِهِ، يقال: بَعَثْتُ البعيرَ، إذا أَثَرْتَهُ من مَبْرَكِهِ، تقولُ: بُعِثَ الطيرُ من أوكارها لِمَنْ يصيدُ؛ أي تَتَبَّعَهُ؛ ولهذا يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] يعني إرسالَ الرسلِ يُسمى بَعْثًا فهو كَلَّفَهُم بذلكَ.

والمقصودُ بالبعث هنا إحياءُ الموتى، وإحياؤهم أن يَحْيَوْا على هَيْآتِهِمُ التي ماتوا عليها، كما ورد في الحديثِ: «مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ يُبْعَثُ عَلَيْهِ»، وهذا من الناحيةِ الخَلقية والخُلقيةِ، الخَلقيةِ التي يكونُ قد عاشَ عليها الإنسانُ، والخُلقيةُ كذلك، كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨]؛ يعني أنَّ المنافقَ يُبْعَثُ منافقًا يَحْلِفُ لِرَبِّهِ كما يَحْلِفُ

فنؤمنُ بالبعثِ، وهو إحياءُ اللهِ تعالى الموتى.....

للناسِ، فقلبُهُ أغْلَفُ، يتَصَوَّرُ أنهُ إذا حَلَفَ وإذا أَخْبَرَ يَنْفَعُهُ كما كان في الدنيا، والمؤمنُ كذلكَ يُبْعَثُ على إيمانِهِ وعلى هيأتِهِ، وذلكَ لأنَّ الاستيفاءَ في الآخرةِ، لا بد منَ استيفاءِ الحقوقِ، فكلٌّ يعرِفُ الذي عليهِ حقٌّ، يَعْرِفُهُ بهيأتِهِ وحالتِهِ التي ماتَ عليها حتى يطالبُهُ بحقِّهِ.

لهذا يفِرُّ الناسُ بعضُهم من بعضٍ، بلِ القريبُ يفرُّ من قريبِهِ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] خوفًا من المطالبةِ بالحقوقِ، الإنسانُ يفرحُ أنْ يكونَ له على ولدِهِ له حقٌّ أو على أبيهِ أو على قريبِهِ، فذلكَ اليومُ يومٌ هائلٌ جدًّا؛ ولهذا في الدنيا الإنسانُ يمكن أن يقدِّمَ نفْسَهُ فداءً لِمَنْ يُحِبُّهُ، أما هناكَ فلا يُمْكِنُ أبدًا، ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج]، لكنْ هيهاتَ! كلٌّ يُجزَى بعملِهِ، فهوَ يومٌ عظيمٌ جدًّا، فيجبُ أنْ يَستعدَّ العبدُ لهُ.

وقولُهُ: «**فنؤمِنُ بالبعثِ وهو إحياءُ اللهِ تعالى الموتى**» كلُّ ميتٍ سيحيا، حتى البهائمُ، ويُقتصُّ من ذاتِ القرونِ للتي ليسَ لها قرونٌ، ثم يقالُ لها: كوني ترابًا، وعندَ ذلكَ يقولُ الكافرُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

والإنسانُ ـ كما جاءَ في الحديثِ ـ تتفتَّتُ أجزاؤه وتُصبحُ ترابًا، ولا يبقى منه إلا عَجْبُ الذَّنَبِ، وهو جزءٌ صغيرٌ أسفلَ الظهرِ، هذا لا يفنى، ومنه يَنْبُتُ الإنسانُ إذا نُفِخَ في الصور النفخةَ الثانيةَ. وقبلَ أن يُنْفَخَ في الصورِ النفخةَ الثانيةَ يأمرُ اللهُ ربُّ العالمينَ السماءَ فتُمطِرُ مَطَرًا غليظًا كمنيِّ الرجالِ، يأخذُ في الأرضِ مسافةً ووقتًا، ثم ينبتونَ من ذلكَ، يقولُ: كما تَنْبُتُ الطَّرَاثِيثُ، والطُّرثُوثُ نَبْتٌ يَنْبَسِطُ على وَجْهِ الأرْضِ كالفِطْرِ، ثم يُنفخُ في الصورِ النفخةَ الثانيةَ فتذهبُ كلُّ روحٍ إلى بَدَنِها فيذهبونَ يمشونُ إلى المحشرِ الذي يَجْمَعُهُم اللهُ فيه.

حين يَنفخُ إسرافيلُ في الصورِ النفخةَ الثانيةَ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، .....

وقولُهُ: «حينَ يَنْفُخُ إسرافيلُ في الصورِ النفخةَ الثانيةَ» اختُلِفَ في النفخاتِ كم هي؟ فكثيرٌ من المفسرينَ يقولُ: إنها ثلاثٌ، وقد جاءَ النصُّ على هذا في حديثِ الصُّورِ أنَّ النفخاتِ ثلاثٌ، فهو نصٌّ لا يحتملُ التأويلَ، ولكنَّ حديثَ الصورِ ضعيفٌ، وهو حديثٌ مجموعٌ من أحاديثَ كثيرةٍ بعضُها صحيحٌ وبعضُها ضعيفٌ، والقرآنُ يدلُّ على أنَّ النفخاتِ اثنتانِ، وأحاديثُ الرسولِ ﷺ كذلكَ تدلُّ على أنهما اثنتانِ.

فاللهُ ﷻ يقولُ في كتابِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وهـذا ظاهِرُه أنهما نفختانِ أولى وثانيةٌ فقط، وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ١ ـ ٧]، الراجفةُ الأولى، الرادفةُ الثانيةُ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾، فهذا واضِحٌ في أنَّ النفخَ في الصورِ نفختان.

أما الأحاديثُ فجاءتْ صريحةً واضحةً، كما في الصحيحينِ قال ﷺ: «يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ»[1] وغيرُ هذا الأحاديثُ كثيرةٌ.

وقولُه ﷻ في هذه الآيةِ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا الاستثناءُ اختُلِفَ فيه كثيرًا؛ مَنِ المقصودُ بقولِهِ: ﴿إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣).

فيقومُ الناسُ من قبورِهم لربِّ العالمينَ، حُفاةً بلا نعالٍ، عُراةً بلا ثيابٍ، غُرْلًا بلا ختانٍ، .....

مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اللهُ أعلمُ، كلُّ الأقوالِ في هذا لا تخلو من نظرٍ؛ منهم مَنْ يقولُ: الشهداءُ، ومنهم مَن يقولُ: الحورُ العينُ ومَن في الجنةِ، ومنهم مَن يقولُ: الأنبياءُ، والصوابُ أن نقولَ: اللهُ أعلمُ مَن همُ الذينَ استثناهمُ اللهُ ﷻ مع أنهُ جاءَ أنَّ الملائكةَ تموتُ، حتى إسرافيلُ الذي يَنْفُخُ في الصورِ لا يبقى حيًّا بل يموت، إلا الحيَّ القيومَ الذي لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، ربُّ العالمينَ ﷻ، أمَّا مَن في الجنة فاللهُ أعلمُ.

وقولُهُ: «**فيقومُ الناسُ من قبورِهم لربِّ العالمينَ**» يعني يذهبونَ إلى المحشرِ فيقومونَ قيامًا، ليس هناك جلوسٌ، والإنسانُ لا يجدُ إلا موطِئَ قدميهِ لكثرةِ الناسِ؛ لهذا يقولُ في الذينَ يطفِّفون الكيلَ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١٦]، هو يومٌ عظيمٌ جدًّا وطويلٌ، خمسون ألفَ سنةٍ قيامًا، مَن يُطيقُ هذا؟! لولا أنهم لا يموتونَ لماتوا من أوَّلِ وهلةٍ، كما قال ﷻ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]؛ يعني أسبابَ الموتِ تأتي مِن كلِّ مكان، ولكنْ لا موتَ.

ولهذا يتمنَّوْنَ القضاءَ بينهم ولو إلى النارِ؛ لما يَرَوْنَ ويُقَاسُونَ من الشدائدِ الهائلةِ، فهوَ يومٌ عظيمٌ جدًّا، ينبغي للعبدِ أن يستعدَّ لهذا اليومِ بتقوى اللهِ ﷻ.

وهذا الطولُ الهائلُ ليسَ على كلِّ أحدٍ؛ ليس على كلِّ الناسِ؛ فالمؤمنُ الذي أخبَرَ اللهُ ﷻ أنه لا خوفٌ عليهِ ولا يحزنُ لا يكون عليه هذا. وهذه الشدائدُ، قد جاءَ أنه يكونُ بالنسبةِ لهم مثلَ بعدَ العصرِ إلى غروبِ الشمسِ، اللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأمورُ الآخرةِ لا تُقاسُ

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ونؤمنُ بصحائفِ الأعمالِ، .....

بالمعهودِ المعروفِ لنا، وإنما علينا أن نؤمِنَ بالنصوصِ فقطْ، وهي نصوصٌ واضحةٌ لا خفاء فيها، يقولُ: «**فيقومُ الناسُ من قبورِهم لربِّ العالمينَ**» يمشونُ أولًا إلى الحشرِ، والحشرُ جاءَ أنه حَشْرَان: حشرٌ في الدنيا، وحشرٌ في الآخرةِ، أما في الدنيا فقُبيلَ قيامِ الساعةِ تخرجُ نارٌ من قَعْرِ عَدَنَ تسوقُ الناسَ إلى المحشرِ، تبيتُ حيثُ باتوا، وتَقِيلُ معهم حيثُ قالوا، وتأكلُ المتأخِّرَ.

وفي هذا الحشرِ جاءَ أنَّهُ منهم من يُحشرُ على بعيرٍ، وثلاثةٌ على بعيرٍ، وأربعةٌ على بعيرٍ، وبعضُهم على رجليه يمشون، وهذا الحشرُ الذي يكونُ قبلَ يومِ القيامةِ، أما في الآخرةِ فليس هناكَ بعيرٌ؛ لا يمشونَ إلا على أقدامِهم، لا تسمعُ إلا همسًا؛ معنى هذا أنه لا أحدَ يتكلمُ، فلا تسمعُ إلا صوتَ الأقدامِ فقطْ، لا يتكلمونَ، شاخصةً أبصارُهم من شدَّةِ الأمْرِ والأهوالِ التي يعانونها، والنارُ يؤتى بها وتحيطُ بهم من جميعِ الجهاتِ، فلا مَعْبَرَ ولا مفرَّ إلَّا من فوقِ جهنمَ كما سيأتي في نَصْبِ الصراطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ هذه تأكيداتٌ؛ لأنَّ منَ الناسِ مَن يُكَذِّبُ بهذا، قال: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ يعني أنه وعدٌ حقٌّ لا بد منه، ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ إنَّا تأكيد، وفاعلِينَ كلاهما تأكيدٌ، ووعدًا تأكيدٌ؛ لأنَّ هذا مصدرٌ؛ يقال: وَعَدَنَا ذلكَ وَعْدًا مؤَكَّدًا، فلا بد من وقوعِهِ، أعاننا اللهُ عليهِ، فهو أمرٌ هائلٌ جدًّا، ونحنُ ضعفاءُ مساكينُ.

وقولُهُ: «**ونؤمنُ بصحائفِ الأعمالِ**» الصحائفُ التي تُسَجِّلُها الملائكةُ،

تُعطى باليمينِ، أو من وراءِ الظهورِ بالشمال، .....

وهي أصحُّ أقوالِ المفسرينَ المرادةِ في قولِهِ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء] يعني أنَّ هذه الصحائفَ محفوظةٌ، إذا كُلِّفَ العبدُ جعلَ اللهُ معه مَلَكَيْنِ كريمينِ يُسجِّلانِ كلَّ ما يصدُرُ منه مِن قولٍ وفعلٍ، واحدٌ يكتبُ الحسناتِ، والآخرُ يكتبُ السيئاتِ، ثم إذا ماتَ طُويتْ هذه الصحائفُ وحُفظتْ، ولا يذهبُ هذان الملكان إلى رجلٍ آخَرَ، بل إذا كان مؤمنًا وتقيًّا جاءَ أنهما يستغفرانِ لهُ، وإن كان شقيًّا فالشقيُّ ليس له إلا عملُهُ الذي سيُجزى به، فإذا كانَ يومُ القيامةِ تُخرَجُ الصحائفُ، وتتطايرُ هذه الصحفُ.

قوله: «**تعطى باليمينِ، أو من وراءِ الظهورِ بالشمالِ**» فآخِذٌ كتابَهُ بيمينِهِ، وهذا علامةُ السعادةِ، أو آخِذٌ كتابَهُ بشمالِهِ، وهذا علامةُ الشقاءِ.

ومنهم من يُلوى عنُقُه ويصيرُ وجهُهُ إلى قفاهُ، ويأخذُ كتابَهُ بشمالٍ ويقرأ كتابَهُ، ومِنَ العجائبِ أنَّ ابنَ حزم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: هؤلاءِ الذين تُلْوَى أعناقُهم ويقرؤون كتابَهُم من خلْفِ ظُهورِهِم أصحابُ اليمينِ، وأما السابقونَ فيقرؤونَ كتابَهُم كما في حالتهم في الدنيا بوجهِهِ ويدِهِ اليمنى، وانفرَدَ في هذا القولِ، ولا أحدَ يشاركُهُ فيه، وهو خطأٌ واضحٌ، فالذي يُلوى عنقَهُ ويأخُذُ كتابَهُ من وراءِ ظهرِهِ فهذِهِ زيادةُ عذابٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ أشدُّ مِنَ الذي يأخذُ كتابَهُ بشمالِهِ ويقرؤُهُ.

ومنْ أهلِ التخريفِ والجهلِ والضلالِ البيِّنِ الواضحِ قومٌ إذا ماتَ فيهم الميِّتُ الآنَ كسروا يدَهُ الشمالَ! حتى لا يأخذَ كتابَهُ بشمالِهِ، خرافاتٌ تستولي على الناسِ فتجعلَهُم أضلَّ من البهائمِ؛ فالبهيمةُ أحسنُ منهم، يتصورونَ الأمورَ كما هم عليهِ من ضلالِ قومِهم الذينَ معهم والتدجيلِ عليهم والكذبِ والتزويرِ، ومثلُ هؤلاءِ لا يؤمنونَ لا بكتابٍ ولا سُنَّةٍ، وإنما يؤمنونَ بما تُمْلِيهِ عليه شياطينُهم وسوفَ يعلمونَ. وصحائفُ

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٢].

الأعمالِ هي التي تُسَجَّلُ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ [ق: ١٦ ـ ١٧]، قعيدٌ يعني أنه قاعدٌ مستعدٌّ دائمًا لا يفارِقُهُ. ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، فهو ينتظرُ النطقَ فَيُسَجِّلُهُ، وهو مِثْلُ ذلكَ العملِ، فأيُّ عملٍ يعملُهُ يُسجَّلُ.

يقولُ بعضُ السلفِ: إنَّ رجلًا كان راكبًا حمارًا، فعثر الحمارُ، فقال: تعِسَ الحمارُ، قال صاحبُ الحسناتِ: ليستْ حسنةً فأكتبها، فأوحى اللهُ ﷻ إلى صاحبِ السيئاتِ أنَّ كلَّ ما تَرَكَ صاحِبُ الحسناتِ؛ فاكتبْهُ أنتَ، فمعنى ذلك أن جملةَ تَعِسَ الحمارُ، في صحيفةِ السيئاتِ.

اختلفَ العلماءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩] أُمُّ الكتابِ اللوحُ المحفوظُ الذي فيهِ كلُّ شيءٍ، وكلُّ كتابةٍ تُكتَبُ فهي مكتوبةٌ فيهِ أولًا، فأصحُّ الأقوالِ أنَّ هذا المحوَ والإثباتَ في الشرائعِ، وبعضُ العلماءِ يقولُ: في صحائفِ الملائكةِ، والذي يُمحى الشيءُ الذي ليسَ فيه ثوابٌ ولا عليهِ عقابٌ، ويثبت ما فيه ثوابٌ وعقابٌ في آخر النهار؛ أي: إذا انتهى النهارُ مُحِيَ، خُذِ القلمَ، أعطني الكتابَ، وما أشبه ذلك، وهذا قولٌ من أقوالِ العلماءِ ليس منصوصًا عليه، القولُ الثاني: أن المحوَ والإثباتَ فيما ينسخُ اللهُ هو أنه يُثْبِتُهُ بلا نَسْخٍ، واللهُ أعلمُ.

قولـه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ جاءَ تفسيرُ الحسابِ اليسيرِ عنِ النبي ﷺ أنهُ العَرْضُ؛ يعني عَرْضَ السيئاتِ فقطْ، يقال: أنتَ عملتَ كذا، وعملتَ كذا، ولا يُساءَلُ عنها

.....

غيرَ هذا، ومع ذلكَ يخجلُ الإنسانُ من ربِّهِ ﷻ، ويودُّ أنه ما كانَ في هذا، قيلَ لابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما كما في الصحيحين: كيفَ سمعتَ رسول الله ﷺ يقولُ في النجوى؟ قال سمعتُه يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فيقرِّرُه بذنوبِهِ يقولُ: عملتَ كذا في يوم كذا وكذا، فإذا اعترفَ بها وعُرِضَتْ عليه قال اللهُ له: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[1] ويُعطى صحيفَتَهُ بيمينِهِ، ويخرجُ قد استولى عليه الفرحُ، يمدُّ صحيفتَهُ على الناسِ ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٠] إلى آخرِهِ.

أي: استولى عليه الفرحُ، وتصوَّر أنَّ الناسَ ما لهم هم إلا أن ينظروا إلى صحيفتِهِ يقرؤوا صحيفتَهُ، أما المعلنُ للسيئاتِ غيرُ المستترِ فهذا يُنادَى على رؤوسِ الناسِ، يقال: إنه فعلَ كذا وكذا، فالمقصودُ أنَّ الحسابَ اليسيرَ عَرْضٌ فقطْ بدونِ المناقشةِ، أما مَنْ نوقِشَ الحسابَ فقد هَلَكَ، كما قال المصطفى ﷺ.

وقولُهُ: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ يعني إلى الجنةِ، يعرفُ بيتَهُ، ويعرف أهلَهُ أكثرَ من معرفتِهِ لبيتِهِ في الدنيا، فهذا معنى ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ ينقلبُ بعدَ المحاسبةِ والموقفِ إلى أهلِهِ في الجنةِ، قد استولى عليه السرورُ والحبورُ والفرحُ، فسَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدَها أبدًا، في حياةٍ أبديةٍ لا يعتريها مرضٌ ولا هرمٌ ولا خوفٌ، ولا أيُّ أمرٍ من الأمورِ التي تكونُ في الدنيا، هذا الذي يجبُ أن يُعمل له.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ وأصحابُ اليمينِ قَسَّمَهُم حسبما فُهِمَ إلى قسمين: الذينَ يذهبونَ إلى الجنةِ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

ونؤمنُ بالموازينِ تُوضَعُ يومَ القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئًا ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

بلا حسابٍ ولا عذابٍ، كما صحَّ الحديثُ في هذا، وقِسْمٌ ثانٍ: لا يذهبونَ مِن أوَّلِ وَهْلَةٍ ولكنْ لا يدخلونَ النارَ، فهؤلاء منَ المقرَّبينَ.

والذينَ يدخلونَ النار يُعْطَوْنَ صحائفَهم بشمالِهم مِن وراءِ ظهورِهم.

فأهلُ الشقاءِ نوعانِ: نوعٌ يأخذُ الصحيفةَ بشمالِهِ ولا يُلوى عُنُقُه، والثاني: يُلْوَى عُنُقُه من وراءِ ظَهْرِهِ ويقرأُ، وهذا أشدُّ عذابًا من الأولِ، ﴿يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ واللهُ ﷻ يقولُ: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٤]، إنه شقاءٌ لا سعادةَ بعدَهُ أبدًا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ الصليُ هو مزاولةُ النارِ، نسألُ اللهَ العافيةَ، وهوَ كونُهُ فيها يتقلَّبُ الليلَ والنهارَ.

وقوله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ طائرُهُ يعني العملَ الذي كانَ يعملُهُ في الدنيا أُلْزِمَ بهِ، ومعنى قولِهِ: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ أنه لازَمَهُ ملازمةَ العُنُقِ له لا ينفكُّ عنه، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ يعني مفتوحًا يقرؤه لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً، ويقالُ له: اقرأْ كتابَكَ وحاسِبْ نَفْسَكَ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ وهذا يكونُ لكلِّ أحدٍ سواءً قارئًا أو أُمِّيًّا سوفَ يقرأُ كتابَهُ.

وقولُهُ: «**ونؤمنُ بالموازينِ**» الموازينُ في الموقِفِ، كما أن نَشْرَ الصحفِ في الموقِفِ، وجاءتْ في كتابِ اللهِ كلُّها مجموعةً: الموازين،

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٤]. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠].

كل ما ذُكِرَ في القرآنِ نسبةً إلى الموازينِ التي تُنْصَبُ يومَ القيامةِ ليس ميزانًا مطلقًا، فيقولُ قائلٌ مثلًا: اللهُ ﷻ يقولُ: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، الميزانُ هنا العدلُ، وليس المقصودُ الميزانَ الذي تُوزَنُ به الأعمالُ، أما الذي جاءَ في وزنِ الأعمالِ فهو مجموعٌ كلُّهُ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وهكذا، اختلَفَ العلماءُ ما هو السبب؛ فمنهم مَن يقولُ: كلُّ عملٍ له ميزانٌ، الموازينُ متعددةٌ، ومنهم مَن يقولُ: جُمِعَتْ لكثرةِ الأعمالِ، وإلا فالميزانُ واحدٌ.

والميزانُ لهُ كِفَّتَانِ بالنصوصِ التي جاءتْ، فإذا كانَ له كِفَّتَانِ فيكونُ له لسانٌ، واللسانُ هو الذي يميل لإحدى الكِفَّتَيْنِ يتبيَّنُ به المَيْلُ، وهذا الميزانُ على كِبَرِهِ وعِظَمِهِ يميلُ بمثقالِ الذرَّةِ؛ يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠] يعني إذا زادتْ حسناتُ الإنسانِ على سيئاتِهِ مثقالَ ذرةٍ ضاعَفَها اللهُ ﷻ وأدْخَلَهُ الجنةَ، وإذا زادتْ سيئاتُهُ فلا بد من دخولِ النارِ إلا أن يشاءَ اللهُ ﷻ.

ولهذا يقولُ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يودُّ أنهُ ما كان، وأنه هلكَ ولم يُبعثْ ولم يكن حيًّا، ولكنْ هو اكتسبَ في حياتِهِ الخسارةَ. ثم اختلفَ العلماءُ ما هوَ الذي يوزَنُ، هل هو الإنسانُ نفسُهُ أو أعمالُهُ؟ جاءَ ما يدلُّ على هذا وهذا، فيكون كلا الأمرينِ، جاءَ في الصحيحِ أنه: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ السمين يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ

. . . . . .

جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»[١] هذا من أهلِ الشقاءِ.

وفي حديثِ قصةِ عبد اللهِ بنِ مسعودٍ لمَّا كانَ يَجْنِي الْكَبَاثَ، والكَباثُ هو ثَمَرُ الأرَاكِ، فنَظَرَ الصحابةُ إلى سَاقَيْهِ، فَضَحِكُوا مِن دِقَّةِ سَاقَيْهِ فَقَالَ الرسولُ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[٢]، فهذا يدلُّ على أنَّ الرجلَ نَفْسَهُ يُوزَنُ.

وفي الترمذيِّ يقولُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سيخلِّصُ رجلا من أُمّتي على رُؤُوس الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي؟ فَيَقُول: لَا يارب! فَيَقُول: أَفَلَك عذر؟ قَالَ: لَا يارب! فَيَقُولُ: بَلَى. إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ»[٣]، بطاقةٌ صغيرةٌ ثَقُلَتْ بهذِهِ السجلاتِ التي هي تسعٌ وتسعونَ سجلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ، شيءٌ كثيرٌ جدًّا.

وقد أشكلَ على بعضِ العلماءِ هذا الحديثُ؛ لأنَّ كلَّ المسلمينَ يقولونَ: لا إلهَ إلا اللهُ، وثبتتِ الأحاديثُ الكثيرةُ أنَّ منهم طوائفَ كثيرةً يدخلونَ النارَ؛ لهذا يقالُ هنا: لا بد أنه قالَ هذهِ الكلمةَ صادقًا تائبًا مخلصًا فماتَ على هذا؛ لهذا ثَقُلَتِ بالسجلات كلها، فالمقصودُ أنَّ هذا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤١٧٤)، والبزار في «المسند» (٨١٧٣).
(٢) أخرجه أحمد (٣٩٩١).
(٣) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩).

ونؤمنُ بالشفاعةِ العظمى لرسول الله ﷺ خاصةً، يشفعُ عندَ اللهِ تعالى بإذنِهِ ليقضيَ بينَ عبادِهِ، حين يصيبُهم منَ الهمِّ والكربِ ما لا يُطيقونَ، فيذهبونَ إلى آدمَ، ثم نوحٍ، ثم إبراهيمَ، ثم موسى، ثم عيسى، حتى تنتهيَ إلى رسول الله ﷺ.

يدلُّ على أن الصحائفَ توزَنُ، والأولُ يدلُّ على أنَّ الناسَ يوزَنُونَ، فيجوزُ هذا وهذا، والعلمُ عندَ اللهِ ﷻ.

قوله: «**ونؤمنُ بالشفاعةِ العظمى**» لرسول الله ﷺ، وهي المقامُ المحمودُ الذي وعدَهُ اللهُ، والعظمى لأنها تكونُ في الموقفِ، تشملُ كلَّ أهلِ الموقفِ؛ كافرَهم ومؤمنَهم، شقيَّهم وسعيدَهم، كلُّهم يدخلون فيها، أما الشقيُّ فيُذهب به إلى النارِ، وأما السعيدُ فيُحاسَبُ، وبعضُهم يذهب بلا حسابٍ إلى الجنةِ كما جاءَ الحديثِ الصحيحِ في ذلكَ.

وقيل: إنها سُمِّيت عظمى؛ لأنها يتقاعس عنها أولو العزم من الرسل.

والشفاعةُ في اللغة: أُخِذَتْ من الشَّفْعِ، والشَّفْعُ ضِدُّ الوَتْرِ، الوَتْرُ واحدٌ، وذلك أنَّ الناسَ يطلبون فيُشفع طلبُهم بطلبِ الرسولِ ﷺ، والشفاعةُ لا تكونُ من المخلوقِ رأسًا، ولا بد أن يأذنَ اللهُ ﷻ للشافعِ.

ولهذا ثبَتَ عن النبي ﷺ أنه يقولُ: «إِذَا أَتَوْنِي أَذْهَبُ إِلَى مَكَانٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي سَاجِدًا مَا شَاءَ اللهُ»، جاء أنه يسجد قَدْرَ أسبوعٍ، ويفتحُ اللهُ عليهِ من المحامدِ والثناءِ يقولُ: «مَا لَا يَحْضُرُنِي»، وفي روايةٍ يقول: «مَا لَا أُحْسِنُهُ الْآنَ»، وكلُّ هذا من فضلِ اللهِ ﷻ، ثم يقولُ اللهُ ﷻ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاسْأَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» فإذا قالَ اشفعْ يقولُ: يا ربِّ أَرِحْ عبادَكَ من هذا الموقفِ، حاسِبْهُم، فيقولُ اللهُ ﷻ: «أَنَا آتٍ، فَيَأْتِي وَيُحَاسِبُهُمْ»[1] ولهذا سُمِّيَتْ كُبْرَى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

ونؤمنُ بالشفاعةِ فيمن دخلَ النارَ من المؤمنينَ أن يخرجوا منها، وهي للنبيِّ ﷺ وغيرِهِ من النبيينَ والمؤمنينَ والملائكةِ، وبأنَّ اللهَ تعالى يُخرِجُ من النارِ أقوامًا من المؤمنينَ بغيرِ شفاعةٍ، بل بفضلِهِ ورحمتِهِ.

وهذه خُصَّ بها نبيُّنا ﷺ إكرامًا له؛ ولهذا سُمِّيَ المقامَ المحمودَ، وهذا هو الصحيحُ أن المقامَ المحمودَ هو الشفاعةُ التي تكونُ في الموقفِ، وهذه لا يُنكرُها أحدٌ، حتى الخوارجُ والمعتزلةُ الذين أنكروا الشفاعةَ لا ينكرونها، ولهذا فسياقُ الحديثِ فيها أشْكلَ على كثيرٍ على العلماءِ؛ لأنَّ في حديثِ أنسٍ أنهم لمَّا ذهبوا إليه في وقتِ ما ظَهَرَ إنكارُ الشفاعةِ وأخذوا معهم ثابتًا البُنَانِيَّ، وثابتٌ البُنَانِيُّ من الذينَ لازموا أنسًا وكانوا يأخذونَ عنه، فذهبوا بهِ ليشفعَ لهم وهو في البصرةِ في قصرِهِ، ساكنًا هناكَ، ذهبوا إلى قصر أنس، وقالوا لثابت: لا تسألْه أوَّلَ شيءٍ عن غير الشفاعةِ، فساقَ الحديثَ إلى أنْ جاءَ إلى ذِكْرِ الشفاعةِ الكبرى فقالَ: «فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ»[1] هو ما قال هذا، ولكن حُذفت الشفاعةُ الكبرى؛ لأنها مُتَّفَقٌ عليها وليس فيها خلافٌ، وأرادوا الشفاعةَ في أهلِ الكبائرِ ومَن كانَ في النارِ؛ لأن هذا هو الذي ينكره بعض الناس، وهذا الذي يريدونه، وقد بيَّن ذلك الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ في فتحِ الباري.

فالشفاعةُ قَسَّمَها العلماءُ إلى ثمانيةِ أنواعٍ: منها ثلاثُ شفاعاتٍ خاصةٍ بالنبيِّ ﷺ:

الشفاعةُ الأولى: هذه التي ذكرها.

والثانيةُ: في عمِّهِ أبي طالبٍ خاصَّةً؛ لأنه يُخرَجُ من النارِ ويُجعل في ضحضاحٍ منها يصلُ إلى كعبيهِ يغلي منها دماغُه، وفي روايةٍ: «إِنَّ أَهْوَنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

. . . . . .

أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ، تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ، يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ»[١] هذا ثبتَ بسببِ حمايتِهِ للنبيِّ ﷺ وزَوْدِهِ عنه، ولكنه ماتَ كافرًا، فهو من أهل النار، فلا يُخرجُ منها.

الثالثةُ: شفاعتُهُ في فتحِ بابِ الجنةِ لدخولِ أهلِ الجنةِ إذا نجوا من النارِ وعبروا على الصراطِ، يُحبسون قبلَ دخولِ الجنةِ: في قنطرةٍ هناك، والقنطرةُ هي آخِرُ الصراطِ، فيقتصُّ من بعضهم لبعضٍ؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّ هذا الاقتصاصَ لا يأتي على حسناتِهم، فلا يدخلونَ الجنةَ إلا وقد هُذِّبُوا ونُقُّوا، وليس لأحدٍ عند أحدٍ حقٌّ، وليسَ في قلبِ أحدٍ على أحدٍ غِلٌّ أو حسدٌ أو شيءٌ مما يكونُ في الدنيا، يدخلون وقد صُفُّوا؛ لأنَّ الجنةَ دارُ الطيبِ والطيبينَ، ولا يدخلها إلا طيِّبٌ، فينقِّيهم اللهُ ﷻ، ثم يستأذنُ رسول الله ﷺ في فتحِ بابِ الجنةِ لهم، فالجنةُ لها أبوابٌ ثمانيةٌ كما ثبتَ ذلك، وجهنمُ لها أبواب سبعة، وهذه الأبوابُ كما جاءَ في الحديثِ يقولُ: «مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وهو كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ»[٢] يعني تكونُ مزدحمةً.

فإذا طَرَقَ البابَ يقولُ خازنُ الجنةِ: مَنْ؟ يقولُ: مُحَمَّدٌ. يقولُ: «بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»[٣] هذهِ شفاعةٌ ثالثةٌ له خاصَّةً.

أما البقيةُ فيشتركُ معهُ الملائكةُ والنبيونَ والمؤمنونَ والأطفالُ الصغارُ الذين ماتوا، يشفعون لآبائهم، وقد ثبتتِ الأحاديثُ بهذا، ثبتَ أنه يقولُ ﷺ: إذا نجا المؤمنونَ ورأوا أنهم نجَوْا يسألونَ اللهَ: يا ربَّنَا إخواننا الذين كانوا معنا في الدنيا يُصَلُّونَ معنا ويصومون معنا، وقد تساقطوا في

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٧).

ونؤمنُ بحوضِ رسول الله ﷺ، .....

النارِ، فيقولُ اللهُ ﷻ: اذهبوا، فمَنْ عرفتموه فأخْرِجوه، فيُخرِجُونَ أقوامًا، ثم تتكرر الشفاعةُ؛ لأنه يقولُ: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»، ولهذا يُجعلُ علامةً له فيعرفونهم، ثم يعودونَ يقول: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ» ثم يعودون يُخرجون من يعرفونه، ثم أخيرًا يقبضُ ربُّ العالمينَ ﷻ قبضةً منهم فيلقيهم في نهرٍ في الجنةِ، ويقالُ لأهلِ الجنةِ: أفيضوا عليهم، وقد صاروا حُمَمًا؛ يعني فحمًا محترقين، فَيَنْبُتُونَ كما قال ﷺ: «فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَاة فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[1] يعني: الذي يحمله السيلُ من الغثاءِ والسمادِ، فالحبةُ تكونُ فيه أسرع نباتًا.

فالمقصودُ: أن الشفاعةَ تتعدد، وينصُّ العلماءُ عليها يقولونَ: نؤمنُ بالشفاعةِ لأنَّ بعضَ أهلِ البدعِ أنكرها.

ثم يقول: «**ونؤمِنُ بحوضِ رسول الله ﷺ**»، وهو مثل الشفاعة، قد أنكره بعضُ أهلِ البدعِ.

والحوضُ في اللغةِ: هو مُجْتَمَعُ الماءِ.

وهو على القولِ الصحيحِ الذي رجَّحَه كثيرٌ من العلماءِ في الموقفِ، وهو المناسبُ، يقولون: لأنَّ في الموقفِ يشتدُّ الظمأُ يحتاجُ الناسُ إليهِ، ويقومُ الرسولُ ﷺ يذودُ أهلَ البدعِ عنه فلا يَرِدُ عليهِ إلا مَن كان مُتَّبِعًا للسُّنَّةِ، وهو يعرف أمَّتَه، قيلَ له: كيف تعرفهم؟ قال: «تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ»[2] الغُرَّةُ تكونُ في الوجهِ كما هو معروفٌ،

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٧).

ماؤهُ أشدُّ بياضًا من اللبنِ، وأحلى من العسلِ، وأطيبُ من رائحةِ المسكِ، .....

والتحجيلُ يكونُ في الرِّجْلَيْنِ، تحجيلُ البهائمِ من الخيلِ، يُحمَدُ منها ما كان أغرَّ ومُحَجَّلًا؛ وهذا كان سلالةً من الخيلِ بهذه الصفةِ.

ويصبُّ فيه ميزابان من الجنةِ، والذين قالوا: إنه ليس في الموقفِ، يقولون: إنه حالتِ النارُ بينَ الجنةِ وبينَ الحوضِ، كيف يكونُ في الموقفِ؟ نقولُ: ليسَ شيءٌ مستحيلًا على قدرةِ اللهِ ﷻ، هذا لا يجعلنا نقولُ إنه ليس في الموقفِ ثم إنَّ لكلِّ نبيٍ حوضًا، وما يقولُهُ بعضُ الناسِ أنهم يستثنونَ صالحًا عليه السلام، ويقولونَ: حوضُهُ ضرع ناقته، هذا غيرُ صحيحٍ، ولم يَثْبُتْ شيءٌ في هذا، فكلُّ نبيٍّ له حوضٌ، ولكنَّ أوسعَها وأعظمَها وأكثرَها واردًا هو حوضُ نبيِّنا ﷺ، يقولُ: «كِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»[1].

ويُذادُ عنهُ قومٌ، يقولُ: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي» يعني بحِلْيَتِهِم وصِفَتِهم، «ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» لم يزالوا مُرْتَدِّينَ على أدبارِهم، «فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»[2] يعني: بُعْدًا لهم، ويجوزُ أن مَن يُكَذِّبُ بالحوضِ لا يَرِدُ إليهِ كما أنَّ الذي يُكَذِّبُ بالشفاعةِ قد لا يَدْخُل فيها، والأمرُ للهِ ليسَ لأحدٍ، هو الذي ﷻ يَحْكُمُ بين عبادِهِ.

يقول: «**ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبنِ**» وجاءَ أنه أشدُّ بياضًا من الثلجِ، جاءَ هذا وجاءَ هذا، «**وأحلى من العسلِ وأطيبُ من رائحةِ المِسْكِ**» وأمورُ الآخرةِ هذه تقريبية، وإلا فلا يقارَنُ بالعسلِ والمِسْكِ الذي عندنا، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٣، ٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩٥).

طولُهُ شهرٌ، وعرضُهُ شهرٌ، وآنيتُهُ كنجومِ السماءِ حُسنًا وكثرةً، يَرِدُهُ المؤمنونَ من أمَّتِهِ، مَن شَرِبَ منه لم يظمأْ بعدَ ذلكَ.

ونؤمنُ بالصراطِ المنصوبِ على جهنمَ يمرُّ الناسُ عليهِ على قدرِ أعمالِهم، فيمر أولُهم كالبرقِ، ثم كمرِّ الريحِ، ثم كمرِّ الطيرِ وأشدِّ الرجالِ، .....

هذا تقريبًا للأفهامِ.

وقولُه: «**طولُهُ شهرٌ، وعرضُه شهرٌ**» يعني مسيرتُهُ، جاءَ تقديرهُ أنهُ أيضًا من المدينةِ إلى صنعاءَ، وهذا ليسَ تقديرًا لا يزيدُ ولا ينقصُ، وإنما هذا تقريبٌ للأفهامِ فقطْ، وعلى المرءِ أن يسألَ ربَّهُ ﷻ أن يسقِيَهُ شربةً من هذا الحوضِ، وأنَ يجتهدَ في ذلكَ؛ لأنه لو شرِبَ فهذا علامةُ السعادةِ؛ لأنه قالَ: «فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»، ولكنَّ كثيرًا من الناس يُصدُّ عنهُ.

يقولُ: «**ونؤمنُ بالصراطِ المنصوبِ على جهنَّمَ**» وقد فُسِّرَ قولُ اللهِ ﷻ حيثُ يقولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١] فُسِّرَ الورودُ بهذا، واللهُ أعلمُ؛ فُسِّرَ بالعبورِ على النارِ والناسُ يمرُّونَ عليها على قدرِ أعمالِهم، منهم من يكونُ كلمحِ البصرِ، ومنهم مَنْ يكونُ كالريحِ وكأجاودِ الخيلِ، هذا ما كان يُعرَفُ في وقتِ النبيِّ ﷺ يُخبِرُ بذلكَ تقريبًا للشيءِ الذي سيقعُ، فمعنى ذلكَ أنَّ الناسَ يسيرونَ عليه بأعمالِهم، وليسَ بقوَّتِهم البدنيةِ، ثم إن بعضَهم يَعْجِزُ عملُه عن حَمْلِه، فَيَعْلَق مرةً بالصراطِ ومرةً يحبو ومرة يزحف، مع أنه حارٌّ جدًّا؛ لأنهُ فوقَ النارِ، وهو أيضًا متحرِّكٌ، بل جاءَ أنه يَرُوغُ رَوَغَانَ الثعلبِ، وأنه حديدٌ، فكيف يمشي الإنسانُ؟

إذا نُصِبَ مثلًا فوقَ ممَرٍّ بينَ جَبَلَيْنِ أو نَهْرٍ أو شيءٍ، ولا يكونُ فيهِ كل هذه الصفاتِ، فلا يمكنُ أن يمرَّ عليه كلُّ إنسانٍ، بل يُصرَعُ ويَسْقُطُ إذا نَظَرَ تَحْتَهُ، فكيفَ يمرُّ الإنسانُ من فوقِ النارِ؟ لهذا فالمرورُ عليه

والنبيُّ ﷺ قائمٌ على الصراطِ يقول: يا ربِّ سلِّمْ سلِّمْ. حتى تَعْجِزَ أعمالُ العبادِ، فيأتي من يزحفُ، وفي حافَتَيِ الصراطِ كلاليبُ مُعلَّقةٌ مأمورةٌ، تأخذُ من أُمِرتْ بهِ، فمخدوشٌ ناجٍ، ومُكردسٌ في النارِ.

ونؤمنُ بكلِّ ما جاءَ في الكتابِ والسنةِ من أخبارِ ذلكَ اليومِ وأهوالِهِ، أعاننا الله عليها، ويسَّرها علينا بمنِّه وكرمِهِ.

بالعملِ، وليسَ بقوةِ البدنِ، فمَنْ كانَ مستقيمًا على الصراطِ في هذه الدنيا؛ صراطِ اللهِ الذي أنزلَهُ على رسولِهِ؛ أي: على الإسلام، منِ استقامَ على الأمرِ الذي أمرَ اللهُ به فسيستقيمُ على ذلكَ الصراطِ، وإلا فلن يستقيمَ ولن يستطيعَ العبورَ عليه، وهذه كلُّها من الأهوالِ التي تكونُ في الموقفِ، أمورٌ هائلةٌ جدًّا.

وفي هذا الموقفِ لا أحدَ يتكلمُ من شدةِ الأمرِ، وإنما يتكلمُ الرسلُ، فهُمْ قائمونَ عليهِ، وكلامهم: اللهمَّ سلِّم، اللهمَّ سلِّمْ، يدعونَ اللهَ ﷻ، الأمرُ شديدٌ جدًّا، نسألُ اللهَ السلامةَ. وقولُهُ: «**والنبيُّ ﷺ قائمٌ**» ليسَ النبيُّ فقطْ، كلُّ الأنبياءِ يقومونَ على ذلكَ كما جاءَ في الحديثِ، وهذا كلامُهم: اللهمَّ سلِّم، اللهمَّ سلِّمْ.

يقولُ: «**حتى تَعجِزَ أعمالُ العبادِ**» يعني عن حَمْلِهِم.

يقولُ: «**في حافتي الصراطِ كلاليبُ**» مثلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، إلا أنهُ لا يعلمُ عِظَمَهَا إلا اللهُ، تَخْطَفُ الناسَ وتُلْقِيهِمْ في النارِ، يقولُ ﷺ لأصحابِهِ: «هَلْ رَأَيْتُم السَّعْدَانَ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا رسول الله، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ المُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ، أَوِ المُجَازَى». ومن أمثال العربِ: «مَرْعًى ولا كالسَّعْدَانِ».

وقولُه: «**ونؤمِنُ بكلِّ ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ من أخبارِ ذلكَ اليومِ**

ونؤمنُ بشفاعةِ النبي ﷺ لأهلِ الجنةِ أن يدخلوها، وهي للنبيِّ ﷺ خاصةٌ.

ونؤمنُ بالجنةِ والنارِ، فالجنةُ دارُ النعيمِ التي أعدَّها اللهُ تعالى للمؤمنينَ المتقينَ، فيها من النعيم ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وأهوالِهِ»، أعاننا اللهُ عليها والمسلمين، ويسَّرَها علينا بمنِّه وكرمِهِ؛ لأنهُ لا بد أن نشاهِدَها ونُعَايِشها، واللهُ المستعانُ.

وهذه كلُّها مبنيةٌ على الخبرِ، ولا دَخْلَ للعقلِ والقياسِ فيها، ولمَّا كانَ الرسولُ ﷺ هوَ آخِرَ الرسلِ؛ وعلى أمَّتِهِ تنتهي الدنيا وتأتي الآخرةُ، أكثرَ من ذِكْرِ ذلكَ، كما كَثُرَ ذلك في كتابِ اللهِ، فذِكْرُ ذلكَ اليومِ وذِكْرُ ما فيهِ كثيرٌ جدًّا.

ثم يقولُ: «**ونؤمِنُ بالجنةِ والنارِ**» يعني بأنها موجودةٌ، وأنها مُعَدَّةٌ للناسِ، الجنةُ لأهلِ التُّقَى، والنارُ لأهل الشقاءِ، وهي موجودةٌ الآنَ، وقد خُلِقَتْ من أزمانٍ طويلةٍ، وإذا ماتَ الإنسانُ إذا كان تَقِيًّا تذهبُ روحُه إلى الجنةِ ويُفتَحُ له في قبرِهِ بابٌ إلى الجنةِ كما جاءتِ النصوصُ بهذا.

قال: «**فالجنةُ دارُ النعيمِ التي أعدَّها اللهُ تعالى للمؤمنينَ المتَّقِينَ**» والنارُ دارُ الأشقياءِ يعني أنهم لا يجدونَ عنها محيصًا، أما المؤمنُ الذي يكونُ مرتكبًا للجرائمِ والكبائرِ والذنوبِ إذا ماتَ على جُرْمِهِ وعلى كبائرِهِ بدونِ توبةٍ فقد يدخلُ النارَ، وقد يعفو اللهُ عنه، ولكنْ ثَبَتَتِ النصوصُ الكثيرةُ جدًّا أن جماعاتٍ كثيرةً يُدخلون النارَ ثم يُخْرَجُونَ منها فلا يبقى فيها أحدٌ منهم، وآخِرُ مَن يُخْرَجُ من النارِ الرجلُ الذي يُقالُ لهُ: لكَ مِثْلُ الدنيا وعشرةُ أمثالِها منذُ أن خُلِقَتْ إلى أن فَنِيَتْ، هذا آخِرُ مَنْ يُخْرَجُ من

والنارُ: دارُ العذابِ التي أعدَّها اللهُ تعالى للكافرينَ الظالمينَ، فيها من العذابِ والنكالِ ما لا يخطرُ على البالِ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

النارِ مِنَ المُوَحِّدِينَ، وهو أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً، واللهُ أعلمُ كم يمكثونَ في النارِ، يختلفونَ في بقائِهم فيها حسبَ ما ماتوا عليه من الجرائم والذنوبِ، ولكنّ مَآلَهُم إلى الجنةِ، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ ونفْسٌ هنا نَكِرَةٌ، يدخلُ فيها الملائكةُ والرسلُ وغيرُهم كما قالَ اللهُ ﷻ.

قوله: «**والنارُ: دارُ العذابِ التي أَعَدَّها اللهُ تعالى للكافرينَ**»، واللهُ ﷻ يُكْرِمُ المؤمنينَ حتى يحصلَ للمؤمنِ ما يريدُ، وأمورُ الآخرةِ كما سبقَ أنها لا تقاسُ بالأمور المشابهةِ، أخبرنا أن النارَ في أسفلِ سافلينَ والجنةَ في أعلى عِلِّيِّينَ، فَكَم المسيرةُ ما بينَ السماءِ السابعةِ وأسفلِ شيءٍ؟ هل يمكنُ للإنسانِ أن يصِلَ من هذا إلى هذا، أي: ما بينهما؟ ومع ذلكَ يُخبِرُنا اللهُ ﷻ أنَّ مِن أهلِ الجنةِ مَن أرادَ أن يَطَّلِعَ على النارِ اطلع، وكما مرَّ معنا أنَّ اللهَ يقولُ للمؤمنينَ: اذهبوا فمَن وجدتم في النارِ في قلبِهِ كذا فأخرِجُوه. فهل يستطيعونَ أن يدخلوا النار؟ ألا تَضُرُّهم، يُخرجونَ المؤمنين ولا تضرُّهم كما أن النارَ فيها ملائكةٌ يعذِّبون مَن فيها، كما قال ﷻ: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ٢١] يقمعونه ويضربونه.

يقولُ ﷻ: إنَّ ناسًا من أهلِ الجنةِ يتذكرون أمورهم في الدنيا: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾؛ يعني في الدنيا صاحبه يقولُ له: كيف تصلي وكيفَ تعملُ؟ ينهاه عن الإيمانِ وعن الصلاةِ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ يعني بالآخرةِ، يَعيبُ عليه ذلكَ، ثم يقولُ: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ هل تَطَّلِعُونَ معي في النارِ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ يعني صاحبَهُ الذي كان ينهاهُ عن

وهما موجودتانِ الآنَ، ولن تَفْنَيَا أبدَ الآبدينَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٦].

الإيمانِ، ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يعني في وسطِها سواءً، يخاطبه: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥٧] يعني في النارِ، وغيرُ هذا من الآياتِ التي ذكرها اللهُ ﷻ أنَّ أهلَ الجنةِ إذا أرادوا أن يَطَّلِعوا عليها اطَّلَعُوا.

وأمورُ الآخرةِ لا تُقاسُ بما نعرِفُه ونُشاهِدُه؛ فلهذا يقولُ لهم: اذهبوا فمَن عرفتموه فأَخْرِجُوه. ولا يُخرَجُ أحدٌ إلا بإذنِ اللهِ تعالى وتقدَّس.

يقولُ: «**وَهُمَا موجودتانِ الآنَ**» بعضُ المعتزلةِ يُنكرونَ ذلك، عُرفوا باستهتارِهم واستخفافِهم بالإسلامِ، وشربِ الخمورِ، وتركِ الصلاةِ وغيرِ ذلكَ، وسبِّ الصحابةِ ولعْنِهم، وأشياء أخرى، نعوذُ باللهِ منها، ولكنَّ الجهميةَ منهم مَن قالَ ذلكَ، والمعتزلةُ منهم مَن رَدَّ قولَهم؛ ولهذا مسمَّى التوحيد عندهم نفيُ الصفاتِ؛ لأنهم يقولونَ: إذا قلتَ إن اللهَ له سَمْعٌ ولهُ بَصَرٌ ولَهُ إرادةٌ ولهُ قدرةٌ وله رحمةٌ وله غضبٌ وكذا، قالوا: أنتَ تُثْبِتُ للهِ أشياءَ كثيرةً كلَّها ضلالٌ.

جادلهم الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ وقالَ: إذا قلنا مثلًا نخلة، النخلةُ تشملُ الليفَ والسَّعفَ، والكربُ كلُّهُ يسمى نخلةً؛ لأنَّ هذه صفاتٌ ملازِمَةٌ لها، كذلكَ ربُّنا ﷻ هو بصفاتِهِ لم يَزل، ومِنْ أصولِهم وجوبُ إثابةِ المُطيعِ وتعذيبِ العاصي على اللهِ، يوجِبونَ ذلكَ، يجعلونَ الإنسانَ مثلَ أجيرٍ، إذا استأجرتَ أجيرًا يجبُ عليكَ أنْ تُوَفِّيَهُ، ومِنْ أصولِهم أيضًا فِعْلُ الأصلحِ للعبدِ.

. . . . . .

وهذا يقولون: إنه سببُ انفصالِ أبي الحسنِ الأشعريِّ، هذا الذي يجعلونَهُ ركنًا للإسلام؛ لأنه سَأَلَ شَيْخَهُ الجُبَائِيَّ وَهُوَ مِنْ كِبَارِهِمْ وَأَئِمَّتِهِمْ، وَكَانَ مُلَازِمًا لَهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً؛ لِأَنَّهُ كَانَ زَوْجَ أُمِّهِ، سَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ قَالَ: أَخْبِرْنِي عن ثَلَاثَةِ إِخْوَةٍ، وَاحِدٌ عَاشَ كَافِرًا، وَالثَّانِي: عَاشَ مُؤْمِنًا، وَالثَّالِثُ: مَاتَ صَغِيرًا، أَيْنَ مَصِيرُهُمْ؟ قَالَ: الْكَافِرُ فِي النَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ، وَالصَّغِيرُ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ: الْمُؤْمِنُ الَّذِي عَاشَ وَمَاتَ كَبِيرًا، وَالصَّغِيرُ الَّذِي مَاتَ، دَرَجَتُهُمَا وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: لِمَاذَا؟ قَالَ: لِأَنَّ الْكَبِيرَ صَلَّى وَصَامَ وَجَاهَدَ وَعَمِلَ أَعْمَالًا، فَلَا يَكُونُ مِثْلَ الصَّغِيرِ الَّذِي مَاتَ بِدُونِ عَمَلٍ، فَيَقُولُ: أَلَا يَحْتَجُّ عَلَى اللهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، لِمَاذَا لَمْ تُبْقِنِي حَتَّى أَصِيرَ مِثْلَ أَخِي وَأَصِيرَ فِي مَنْزِلَتِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُ: رَأَيْتُ الْأَصْلَحَ لَكَ أَنْ أَقْبِضَكَ وَأَنْتَ صَغِيرٌ، فَقَالَ: إِذًا يُنَادِي ذَلِكَ الشَّقِيُّ مِنَ النَّارِ يَقُولُ: يَا رَبِّ لِمَ لَمْ تَقْبِضْنِي صَغِيرًا؟ فَهُنَا وَقَفَ حِمَارُ الشَّيْخِ فِي الْعَقَبَةِ، سَكَتَ وَلَمْ يُجِبْ، يقولونَ: فتركَ هذا المذهبَ بسببِ هذا.

ولهذا صارَ أهلُ السُّنَّةِ ينصُّونَ على هذهِ المسألةِ، يقولونَ: الجنةُ والنارُ موجودتانِ الآنَ، ثم يقولُ: «**ولا تَفْنَيَانِ**»، وهذهِ مسألةٌ ثانيةٌ، منهم مَن قالَ إنَّها تَفْنَى، الجنةُ والنارُ كلاهما تفنى، وأبو الهُذَيْلِ يقولُ: تفنى الحركاتُ فقطْ فيُصبحَ أهلُ الجنةِ كالحجارةِ لا يتحركونَ.... إلى آخرِ المذهبِ الباطلِ والسفهِ، هذا لا ينبغي أن يُذكَرَ، لكنه مكتوبٌ في الكتبِ، وهذا سببُ كونِهم ينصُّونَ على وجودِ الجنةِ وأنها لا تَفْنَى.

ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ في كتبِهِ كما في «الصواعقِ» و«شفاءِ العليلِ» و«حادي الأرواحِ» ذكرَ هذه المسألةَ وأطالَ فيها؛ بحيثُ إنَّ الذي يقرأُ هذه الكتبَ

.....

يتصوَّرُ أنَّ ابنَ القيِّم يقولُ بفناءِ النارِ، فذكرَ أدلةً عامَّةً وأشياءَ، ويحتج لها ويطيلُ ويقول، مقتضى أسماءِ اللهِ، ورحمتُهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ، ولكنهُ قالَ في كتابهِ «الوابلِ الصَّيِّبِ» لمَّا ذكَرَ النارَ ودورها وقالَ: النارُ طبقاتٌ، والطبقةُ العليا هي التي يكونُ فيها عصاةُ الموحِّدينَ، هذه الطبقةُ هي التي قيل: إنها تَفْنَى؛ لأنَّ مَن فيها يُخْرَجُونَ، بل يُجعلونَ في الطبقةِ العليا من النارِ إلى أن يُطَهَّرُوا فيُخرَجُوا منها، هذا أيضًا يحتاجُ إلى دليلٍ، أما الاستحسانُ والقياسُ فلا دخْلَ لهُ في هذا، فالعلمُ عندَ اللهِ ﷻ.

المقصودُ أنَّ اللهَ ﷻ أخبرَنا أنَّ الجنةَ باقيةٌ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، وقبلها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٧].

وفي سورةِ الأنعامِ يقولُ ﷻ لما ذَكَرَ خطابَهُ للجنِّ والإنسِ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فأشكلَ هذا الاستثناءُ على كثيرٍ من الناسِ، وهذا من الأمورِ التي احتجَّ بها ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول إنه قالَ في النارِ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وأما في الجنةِ فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ فما معنى هذا الاستثناءِ؟ نقولُ: معنى الاستثناءِ أنَّ كلَّ شيءٍ لا يكونُ إلا بمشيئةِ اللهِ، فخلودُ النارِ وأهلِها بمشيئةِ اللهِ وليسَ بذواتِهم، وكذلكَ أهلُ الجنةِ، فلا يكونُ ذلكَ مشكلًا، والعلمُ عندَ اللهِ ﷻ.

ونشهدُ بالجنةِ لكلِّ مَن شهِدَ له الكتابُ والسُّنةُ بالعينِ أو بالوصفِ، فمِنَ الشهادةِ بالعينِ: الشهادةُ لأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ، ونحوِهم ممَّن عيَّنَهمُ النبيُّ ﷺ، ومنَ الشهادةِ بالوصفِ: الشهادةُ لكلِّ مؤمنٍ أو تقيٍّ.

ونشهدُ بالنارِ لكلِّ مَن شهِدَ لهُ الكتابُ والسُّنَّةُ بالعينِ أو بالوصفِ، فمَنَ الشهادةِ بالعينِ: الشهادةُ لأبي لهبٍ وعمرِو بن لُحَيٍّ الخزاعيِّ ونحوِهما، ومنَ الشهادةِ بالوصفِ، الشهادةُ لكلِّ كافرٍ أو مشركٍ شركًا أكبرَ أو منافقٍ.

ثم يقولُ: «**ونشهدُ بالجنةِ لكلِّ مَن شهِدَ لهُ الكتابُ والسُّنَّةُ بالعينِ أوْ بالوصفِ**» وهل يشهدُ الكتابُ لأحد؟ وهل تشهدُ السُّنَّة لأحدٍ؟ بعضُ الناسِ يقولونَ: قالَ القرآنُ، ويقولُ القرآنُ، وقالَ الحديثُ؟ قالَ اللهُ، هذا هو المقصودُ، والمعنى أنَّ اللهَ أخبَرَ أنَّ المؤمنينَ المتقينَ في الجنةِ، هذا في العمومِ.

يقولُ اللهُ ﷻ عن الصحابةِ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨] هل الذي رضيَ اللهُ عنهُ يكونُ في النارِ؟!

وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠] أليس هذا نصًّا؟ المهاجرون والأنصارُ والذين اتبعوهم بإحسانٍ، فاشترطَ في المتَّبعينَ أن يكونوا بإحسانٍ، أما هم فما اشترطَ فيهم شيئًا، فهناكَ آياتٌ كثيرةٌ في هذا.

ولهذا يقولُ ابنُ حزمٍ رحمه الله: الصحابةُ كلُّهم نشهدُ لهم أنهم في الجنةِ،

.....

والرسولُ ﷺ يقولُ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»[١].

ولمَّا حدَثَ مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعَةَ رضي الله عنه ما حدثَ قال عمرُ رضي الله عنه: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ قَدْ نَافَقَ، فَقَالَ: «مَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»[٢] الذينَ يقالُ لهم: غَفَرْتُ لكم وافعلوا ما شئتم، أيدخلونَ النارَ؟! جاءَ غلامُ حاطبٍ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يَا رسول الله لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «كَذَبْتَ لَا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ»[٣]، فهناك مَن شَهِدَ لهم النبيُّ ﷺ.

وكذلك عموم المؤمنين الذين يموتون على الإيمان، فإنهم يدخلونَ الجنةَ، ولكنْ ليسَ بأعيانِ فلانٍ وفلانٍ.

أما الذينَ نصَّ عليهمُ الرسولُ ﷺ، قالَ: «أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعبد الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ»[٤] فشهِدَ لجميعِ العشرةِ.

ولما دخلَ عليه أبو هريرةَ رضي الله عنه وهو في بستانٍ، فأعطاهُ نعلَيْهِ وقالَ: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»[٥] لماذا أعطاهُ نعْلَيْهِ؟ ليكونَ علامةً على أنَّ هذا قولُ الرسولِ ﷺ .

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٨١)، ومسلم (٢٤٩٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٥).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٧)، وابن ماجه (١٣٣).
(٥) أخرجه مسلم (٣١).

ونؤمنُ بفتنةِ القبرِ: وهي سؤالُ الميِّتِ في قبرِهِ عن ربِّه، ودينِهِ، ونبيِّهِ، في قولِهِ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فيقولُ المؤمنُ: ربِّيَ اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيي محمدٌ، وأما الكافرُ والمنافقُ فيقولُ: لا أدري! سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ.

على كلِّ حالٍ، فالجنةُ فضلٌ من اللهِ ﷻ، فينبغي للإنسانِ أن يأتيَ بالأسبابِ التي بها يدخلُ الجنةَ، وهيَ كثيرةٌ، والنارُ كذلك لها أسبابٌ، نعوذُ باللهِ منها.

ويقولُ: «**ونؤمِنُ بفتنةِ القبرِ: وهيَ سؤالُ الميت**» الفتنةُ السؤالُ، وهي الاختبارُ، والسؤالُ يأتي من ملكَيْنِ، والقبرُ معناه أنه في حياةٍ، ولهذا يقولُ النبيُّ ﷺ لِعُمَرَ رضي الله عنه: «كيف بك إذا أَتَاكَ فَتَّانَا الْقَبْرِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ». قَالَ: يَا رسول الله وَمَعِي عَقْلِي؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: «إِذًا أَكْفِيكَهُمَا»[1] يأتيانِ الإنسانَ وهو في عقلِهِ وهو في حالتِهِ التي ماتَ عليها، فينتهرانِهِ انتهارًا، والسؤالُ عن ثلاثةِ أشياءَ فقطْ: مَنْ تَعْبُدُ؟ وبِأَيِّ شيءٍ تتعبد؟ يعني عن ربِّهِ، وعن دينِهِ، وعن نبيِّه فقطْ.

فإذا أجابَ المؤمنُ يجيبُ بهدوءٍ وبسكينةٍ وبطمأنينةٍ وبدونِ تلعثُم حسبَ ما خرجَ من الدنيا، فإذا أجابَ قالَ: ربِّيَ اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيِّي محمد، يقولانِ له: «وَمَا يُدْرِيكَ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ، قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ»، معنى ذلك أنهم يعرفونَ مَن هوَ المؤمِنُ ومَن هوَ الكافرُ، «قَالَ: وَيُمَدُّ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَيَأْتِيهِ من رَوْحِ الْجَنَّةِ وَرِيحُهَا. فهذهِ فتنةُ القبرِ، ويدلُّ عليها قولُهُ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ

---

(١) أخرجه الحارث في «المسند» (٢٨١)، وأبو داود في «البعث» (٧)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (١٠٥).

ونؤمنُ بنعيم القبرِ للمؤمنينَ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

ونؤمنُ بعذابِ القبرِ للظالمينَ الكافرينَ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

فإذًا هناكَ بعدَ الموتِ عملٌ وتكليفٌ في القبرِ وبعدَ القبرِ، فيجبُ أن نؤمِنَ بهذا.

قال: «**ونؤمِنُ بنعيمِ القبرِ للمؤمنينَ، وبعذابِهِ للظالمينَ والكافرينَ**» بلْ ولأهلِ المعاصي كما ثبتَ في الأحاديثِ في ذلكَ أنهم يُعذَّبونَ، وأسبابُ عذابِ القبرِ كثيرةٌ، منها الغيبةُ والنميمةُ وعدمُ التطُّهر، كما ثبتَ في حديثِ عبد اللهِ بنِ عباسٍ رضي الله عنهما في الصحيحينِ أن النبي ﷺ مرَّ بقبرَيْنِ فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ»[1] يعني لا يتنزَّهُ، تصيبُه نجاساتٌ، فإذًا عدمُ التطهُّرِ من أسبابِ العذابِ، والنميمةُ كذلك من أسبابِهِ، بلِ المعاصي كلُّها من أسبابِ عذابِ القبرِ.

وجاءَ في حديثِ الرؤيا: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا:

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢)، واللفظ له.

.....

سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟، قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ .

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ. قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى، قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلَاءِ؟»[1] إلى آخرِهِ.

ثم فسَّرَا له فقالا: أمَّا الذي رأيتَه يُشرشَرُ صدغُهُ إلى آخرِهِ هذا الرجلُ يكذِبُ الكذبةَ فتبلغُ الآفاقَ يُصنعُ بِهِ ذلكَ إلى يومِ القيامةِ، وأما الرجلُ الذي رأيتَهُ يُثلَغُ رأسُهُ فهذا الرجلُ يأخذُ القرآنَ وينامُ عن الصلاةِ المكتوبةِ، وهذا عذابُهُ إلى يومِ القيامةِ، وأما الرجلُ الذي يَسْبَحُ بالنهرِ فهذا آكِلُ الرِّبَا، وأما الرجالُ الذين رأيتهم في مثلِ التَّنُّورِ فهؤلاءِ الزناةُ وعذابُهم إلى يومِ القيامةِ.

إذًا المعاصي كلُّها سببٌ للعذابِ، عذابِ القبرِ، والعذابُ قد يستمرُّ، وقد ينقطِعُ حسَبَ الإجرامِ، والناسُ يختلفونَ في هذا اختلافًا كثيرًا جدًّا.

والمقصودُ أنَّ هذا أخبر بِهِ اللهُ ﷻ، وأخبرَ بِهِ الرسولُ ﷺ، فيجبُ أن نؤمِنَ بِهِ.

والصحيحُ أنَّ العذابَ على الروحِ والبدنِ معًا، وليسَ على الروحِ فقطْ

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ معلومةٌ، فعلى المؤمنِ أن يؤمنَ بكلِّ ما جاءَ به الكتابُ والسُّنةُ من هذهِ الأمورِ الغيبيةِ، وألَّا يعارضَها بما يشاهدُ في الدنيا؛ فإنَّ أمورَ الآخرةِ لا تُقاسُ بأمورِ الدنيا، لظهورِ الفرقِ الكبيرِ بينهما. واللهُ المستعانُ.

كما يقولُ ابنُ حزم رَحِمَهُ اللَّهُ وجماعةٌ معهُ، بل على البدنِ والروحِ والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، والرَّسولُ ﷺ علَّمَنا أن نقولَ في صلاتِنا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ»[1] أمَرَنا بالتعوُّذِ من عذابِ القبرِ، ومن الفتنةِ في المحيا والممات، وأخبَرَ أنَّ الناسَ يُعذَّبونَ ويُفتنونَ، وفتنةُ الممات هي السؤالُ في القبر، ويُثَبِّتُ اللهُ مَن يشاءُ ويُضلُّ من يشاءُ عندَ السؤالِ، فمَن ثبَّتَهُ اللهُ ﷻ سلِمَ من العذابِ، ومن ضلَّ فإنهُ يُعذَّبُ.

والعذابُ لا يكونُ لشيءٍ لا يُحِسُّ، لا بد أن يكونَ يَأْلَمُ ويُحِسُّ، ولهذا جاءَ أنه إذا ضُرِبَ بالمطراق يصيحُ صيحةً يسمعُهُ كلُّ مَن يليهِ إلا الجنَّ والإنسَ لا يسمعونَ ذلكَ، وفي حديثٍ أنه قالَ ﷺ: «فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»[2] ولكنْ لو رأيناهُ وسمعناه ما استطعنا أن نَقْرَبَ القبورَ.

ومِنَ الأمورِ المعروفةِ عندَ العربِ قبلَ الإيمانِ أنهم كانوا يعتنونَ بالخيلِ، وأحيانًا تُصابُ بالمرضِ، وأحيانًا تصابُ باحتباسٍ يحتبسُ الطعامُ في بطنِها، فيذهبونَ بها إلى المقابرِ فينطلِقُ بطنُها؛ لأنها تسمعُ شيئًا يهولُها، وقد شاهدنا هذهِ الإبلَ ترعى أحيانًا عندَ المقبرةِ ثم تهربُ مسرعةً ونحن ما رأينا شيئًا ولا سمعنا، ولكنها تسمعُ عذابَ القبرِ. وعلى كلِّ حالٍ لا يلزَمُ أن نسمعَ ونرى، بل الواجبُ أن نؤمِنَ بما قالَ الرسولُ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

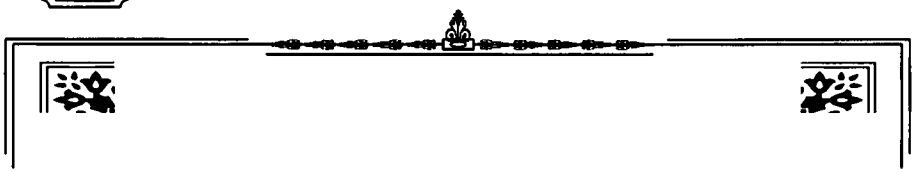

فصل

ونؤمنُ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وهوَ تقديرُ اللهِ تعالى للكائناتِ حسب ما سبقَ به علمُهُ واقتضتْهُ حكمتُهُ.

وللقدرِ أربعُ مراتبَ:

المرتبةُ الأولى: العلمُ، فنؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى بكلِّ شيءٍ عليمٌ، علِمَ ما كانَ وما يكونُ وكيفَ يكونُ بعلمِهِ الأزليِّ الأبديِّ، فلا يتجددُ له علمٌ، ولا يلحقُهُ نسيانٌ.

القدَرُ مأخوذٌ من قُدرةِ اللهِ ﷻ، ولهذا لمَّا سُئلَ عنه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**القدَرُ قدرةُ اللهِ**»، يقولُ ابن عقيلٍ: «شَفَى بهذهِ الكلمةِ الوجيزةِ، وبيَّنَ ووضَّحَ» يعني أنَّ القدَرَ راجعٌ إلى صفاتِ اللهِ ﷻ.

وتقسيم القدر إلى أربعِ مراتبَ أو مرتبتينِ، وكلُّ مرتبةٍ تتضمَّنُ شيئينِ، كما قالَ شيخُ الإسلامِ كلُّها من صفاتِ اللهِ:

الأولى: عِلْمُ اللهِ؛ أنهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، وعِلْمُه محيطٌ بالأزلِ والمستقبلِ، ولا يعزُبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ، كما أكثرَ من ذكرِ علمِهِ وإحاطتِهِ في كتابِهِ ﷻ يُعْلِمُ عِبَادَهُ بذلك، وهذا لا يُنكَرُ؛ ولهذا لما أنكر القدرية العلمَ أوَّلَ الأمرِ أجمعَ الصحابةُ على كفرهم، فراجعوا أنفُسَهم وتركوا هذا القولَ.

وكما قالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ناظِرُوهم بالعلم، إنْ أقرُّوا به خُصِموا، وأنْ أنكَرُوه كفروا»، فعِلْمُ اللهِ ﷻ ظاهرٌ جدًّا في أنَّ اللهَ ﷻ بكلِّ شيءٍ

المرتبةُ الثانيةُ: الكتابةُ، فنؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى كتبَ في اللوحِ المحفوظِ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]

عليمٌ، ولا يخفى عليه شيءٌ، هذه المرتبةُ الأولى.

الثانية: كتابتُهُ لعلمِهِ في مخلوقاتِهِ وفي كلِّ ما يكونُ، فهو كتبَ ذلك قبلَ وجودِ الخلقِ كلِّهم، كما في حديثِ عبد اللهِ بنِ عمرٍو: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[١].

وهذه الكتابةُ ما غادرتْ شيئًا أبدًا، كلُّ حركةٍ وسكونٍ مكتوبة، وهذا من تمامِ عِلْمِه ﷻ؛ لأنهُ كتبَ الشيءَ الذي سيكونُ، فهوَ يكونُ وفقَ كتابتِهِ بلا زيادةٍ أو نقصٍ، أما الكتابةُ فأنواعٌ؛ فهذهِ الكتابةُ الأزليةُ التي قبلَ الخلقِ عامةٌ شاملةٌ وهي التي جاءَ ذِكْرُها في حديثِ عبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[٢] يعني: أنَّ كلَّ شيءٍ كُتِبَ.

ثم الكتابةُ الأخرى، كالكتابةِ التي مرَّتْ معنا أنَّ اللهَ قَسَمَ عبادَهُ قسمين، وفي حديثٍ أن النبي ﷺ خَرَجَ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الكِتَابَانِ؟» فَقُلْنَا: لَا يَا رسول الله إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ اليُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥).

. . . . . .

وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»[١]، فهذه كتابةٌ بعدَ الكتابةِ الأولى. كذلكَ الكتابةُ التي تكونُ للمرءِ وهوَ في بطنِ أمِّهِ عندما يُنفخُ فيه الروحُ، هذه كتابةٌ أخرى ومنقولةٌ عن اللوحِ المحفوظِ، وهي الكتابةُ السابقةُ، ويُعلَّمُ بها الملكُ الذي ينفخُ الروحَ، الذي وُكِّلَ بالأجنةِ؛ ينفخُ فيهِ الروحَ بعدما يُستكملُ خَلْقَهُ ويكتبُ أربعةَ أشياءَ؛ يكتبُ أجَلَهُ، ورزقَهُ، وعملَهُ، وشقيٌّ أو سعيدٌ، هذه الكتابةُ يطَّلِعُ عليها الملَكُ الذي كتبَ هذا الشيءَ.

ولا يُزادُ في هذهِ ولا يُنقَصُ، لأنَّ الكتابةَ لا تتغيرُ كما يتوهَّمُ متوهِّمٌ أنَّ الكتابةَ فيها شيءٌ يُمحى أو فيها يُثبَتُ ويُزالُ كما يُتوهمُ من قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، فالمُعَمَّرُ الذي يُعَمَّرُ، والمُعَمَّرُ الذي يُنقَصُ من عُمُرِهِ كلُّ مكتوبٌ، وكذلك قولُهُ: «لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي العُمْرِ إِلَّا البِرُّ»[٢] ومن أعمالِ البِرِّ صلةُ الرَّحِمِ، وصلةُ الرحمِ مكتوبةٌ، وكذلكَ الدعاءُ مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظِ قبلَ وجودِ الداعي، وكلُّ ما يقعُ من إنسانٍ يقعُ سابقًا بكتابةٍ أزليةٍ، أما العمرُ فإنه لا يزيدُ ولا ينقصُ على ما كُتِبَ وهو في بطنِ أمِّهِ، وكذلك الرزقُ، وكذلكَ السعادةُ والشقاءُ، ولكن لا بد من العملِ فإنَّ العملَ مكتوبٌ، فالمقصودُ أنَّ الكتابةَ عامَّةٌ.

ثم هناكَ كتابةٌ أخرى وهي التي تقعُ كلَّ سنةٍ في ليلةِ القدْرِ كما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤] يُفْرَقُ يعني يُقَدَّرُ ويُكتبُ، وقد سبقَ تقديرُهُ، ولكنْ في هذهِ الليلةِ التقديرُ السنويُّ الذي يقعُ في تلكَ السنةِ يُكتبُ كتابةً بعدَ كتابةٍ.

(١) أخرجه أحمد (٦٥٦٢)، والترمذي (٢١٤١).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٩).

المرتبةُ الثالثةُ: المشيئةُ، فنؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ كلَّ ما في السماواتِ والأرضِ، لا يكونُ شيءٌ إلا بمشيئتِهِ، ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأْ لم يكنْ.

المرتبةُ الرابعةُ: الخَلْقُ، فنؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٢ ـ ٦٣].

وهذه المراتبُ الأربعُ شاملةٌ لما يكونُ منَ اللهِ تعالى نفسِهِ ولما يكونُ من العبادِ، فكلُّ ما يقومُ به العبادُ من أقوالٍ أو أفعالٍ أو تروكٍ فهي معلومةٌ للهِ تعالى مكتوبةٌ عندَهُ، واللهُ تعالى قد شاءَها وخلَقَها ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

ويقولُ العلماءُ أيضًا: هناك كتابةٌ يوميةٌ، وهيَ التي تُفهَمُ من قولِهِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] كما جاءَ عنِ ابنِ عباسٍ أنه ﷻ يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويرفعُ ويخفِضُ، ويفعلُ ما يشاءُ، تعالى وتقدَّس، وكلُّ هذهِ الكتاباتِ لا تختلفُ؛ فهيَ تتفقُ مع الكتابةِ الأولى، هذهِ المرتبةُ الثانيةُ.

والثالثةُ: مشيئةُ اللهِ العامَّةُ الشاملةُ، فما شاءَ كانَ، وما لم يشأْ لم يكن، فلا يقعُ شيءٌ إلا بمشيئتِهِ تباركَ وتعالى، فهوَ المدبِّرُ لكلِّ شيءٍ المتصرِّفُ فيهِ، تعالى وتقدَّس، وكلُّ هذِهِ من مقتضى ربوبيتِهِ، تعالى وتقدَّس.

الرابعةُ: الخلق، فهو ﷻ الخالقُ، وليسَ معه مَن يخلُقُ، فهو الخالقُ وحدَهُ.

فهذه كلُّها رجعتْ إلى صفاتِهِ، فإذًا القدرُ من صفاتِ اللهِ ﷻ.

ولكننا مع ذلكَ نؤمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى جعلَ للعبدِ اختيارًا وقدرةً بهما يكونُ الفعلُ.

قوله: «**ولكننا مع ذلكَ نؤمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى جعلَ للعبدِ اختيارًا وقدرةً بهما يكونُ الفعل**» أما التوفيقُ بينَ خلقِ اللهِ ﷻ وكونِ الإنسانِ يفعلُ فقدْ أشكلَ على بعضِ الناس، ولا سيما الذينَ يتبعونَ الآراءَ، وينظرونَ بمقتضى عقولِهم، ولا يلتفتونَ إلى ما جاءَ في كتابِ اللهِ ﷻ إلا إذا وافقَ ما يقولونَ، الخلقُ يدخلُ فيهِ الأعيانُ والمعاني، اللهُ خلقَ الأعيانَ القائمةَ بأنفُسِها والمعانيَ التي توجدُ بذلكَ، وكلُّ شيءٍ مخلوقٌ للهِ، أما الإنسانُ فهوَ عندهُ مقدِرَةٌ وعندهُ اختيار، وهو يؤمَرُ بالشيءِ الذي يقدِرُ عليهِ، والاختيارُ إليهِ.

فالقدرةُ التي يفعلُ بها الإنسانُ ليسَ الإنسانُ الذي خَلَقَها، بلِ اللهُ خَلَقَها، خلقَ قدرتَهُ، وخلقَ اختيارَهُ، وخلقَ سمْعَهُ وبصرَهُ، وخلقَ كلَّ ما فيهِ من القُوى ومنَ المعاني، ولكنْ جُعِلَتْ إليهِ، خُلقتْ فيه القدرةُ، وخُلِقَ لهُ الاختيارُ، وعُلِّمَ طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ، وقيلَ: الأمرُ إليكَ.

وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء: ١٠٧]، إذا آمَنَ باختيارِهِ وإذا كفرَ هو باختياره؛ ولهذا فالأمرُ الذي يأتي من اللهِ هو بالنسبةِ للناسِ كلِّهم سواءً، فلماذا يؤمِنُ بعضُهم وبعضُهم يكفرُ؟ هوَ باختيارِهِ ومقدورِهِ.

أمَّا كونُ بعضِهم حُبِّبَ إليه الإيمانُ وزُيِّنَ في قلبِهِ؛ فهوَ فضلٌ منَ اللهِ يتفضلُ بهِ على مَن يشاءُ، وإذا مُنِعَ هذا الفضلَ، فاللهُ عليمٌ حيثُ يضعُ فضلَهُ ويمنعُ فضلَهُ، فمعنى ذلكَ مُنعَ فضلَ اللهِ فقطْ وجُعلَ الأمرُ إليه، وإذا جُعِلَ الأمرُ إليهِ فهوَ يختارُ، وفي الغالبِ هوَ لا يستطيعُ أن يهتديَ، بلْ لا يستطيعُ أن يهتديَ حتى يخلُقَ اللهُ ﷻ في قلبِهِ الهدى.

.....

ولهذا جاءَ الهدى مرةً منفيًّا عنِ النبي ﷺ كقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ومرَّةً مُثْبَتًا لهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥١ ـ ٥٢]، ومعلومٌ أنَّ المنفيَّ غيرُ المُثْبَتِ؛ لأنَّ كتابَ اللهِ لا يتعارضُ، فالذي خلقَ الهدى في القلوبِ وحَبَّبَهُ إلى الرجلِ أو المرأةِ، فتحبيبُهُ للمرءِ وتزيينُهُ في القلبِ وتكريهُ ضدِّهِ، فهذا إلى اللهِ، أما الهدى الذي أُضيفَ إليهِ فهوَ البيانُ، وهذا يؤمِنُ به المخالفونَ الذين خالفوا في هذا من القدريَّةِ، قالوا: إنَّ الهدى الذي ذُكِرَ في القرآنِ مضافًا إلى اللهِ معناه البيانُ، وإلا فالهدى إلى الإنسانِ والضلالُ إلى الإنسانِ، اللهُ لا منَّةَ لهُ على العبدِ، والناسُ في هذا سواءٌ، لئلا نقعَ في المحظورِ.

ما هوَ المحظورُ عندهم في هذا؟ الظلمُ، قولُهم: إذا منع عنه الهدى يكون ظالمًا له، تعالى وتقدَّس، فهذا قصورٌ، بل هذا غرورٌ وظلم منهم، يقولون: إن اللهَ يجبُ عليه أن يساويَ بين الناسِ، وأن يفعلَ الأصلحَ لهم كلِّهم، والناس منهم منِ اختارَ الكفرَ، ومنهم اختارَ الهدى، وهم متساوون بهذا، فتُهدر الآياتُ الكثيرةُ التي في كتابِ اللهِ أنَّ اللهَ يهدي مَن يشاءُ ويُضِلُّ من يشاءُ، وهم لا يبالونَ بهذا؛ لهذا فأهلُ السُّنَّةِ الذين يؤمنونَ بهذا يسمون هؤلاءِ ضُلَّالًا؛ لأنهم ينسبونَ الظلمَ إلى اللهِ ﷻ كما يُذكر كثيرًا من المناظراتِ التي تجري بينهم وبين بعضِ أهلِ السُّنَّةِ، وكثير من أهلِ السُّنَّةِ لا يرضى بهذا ولا يناظر لأنه كلُّه ضلالٌ.

ولكن قد يُلجأُ الإنسانُ إلى ذلكَ، كما وقعَ إلى أبي إسحاقَ الإسفراييني رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه دخلَ في مجلسِ الصاحبِ بنِ عبَّادٍ، وكان معهُ صاحبُه عبد الجبارِ المعتزلي الذي هو رأسٌ في الاعتزالِ وفي القدرِ، وكان بجواره والمجلسُ مملوءٌ من الأدباءِ والعلماءِ، فلما دخلَ قال عبد الجبار

.....

لمن عنده: سوفَ أُخزي هذا الداخلَ، فلما صارَ أبو إسحاق قريباً منه. قولَهُ قال: سبحانَ مَن تنزَّهَ عنِ الفحشاءِ! وأبو إسحاقَ يَعرفُ مراده، فأجابه على الفورِ بقولِهِ: سبحانَ مَن لا يكونُ في ملكِهِ إلا ما يشاءُ. والمعنى كما يقولُ عبد الجبارِ: أنتم تقولونَ: إن اللهَ قدَّرَ الكفرَ على الكافرِ والمعصيةَ على العاصي، وهذا فحشاءُ، ونحنُ نُنَزِّهُ ربَّنَا عن هذا، فأجابَهُ بقولِهِ: أنتم تقولونَ: إنَّ اللهَ أرادَ الهدى للكافرِ والرشدَ للعاصي، فلَمْ تقعْ إرادةُ اللهِ وإنما وقعتْ إرادةُ الكافرِ والعاصي، وهذا تصرُّفٌ في ملكِ اللهِ بما لا يشاءُ. فسبحانَ مَن لا يكونُ في ملكِهِ إلا ما يشاءُ.

فقالَ عبد الجبارِ: أيريدُ ربُّنا أن يُعصى؟! فقالَ لهُ أبو إسحاق: أيُعصى ربُّنا قسرًا؟ يعني يُعصى وهو لا يريدُ أنْ يكونَ في ملكِهِ شيئًا لا يريدُهُ؟ فقالَ عبد الجبارِ: أرأيتَ إنْ منعني الهدى، أأحسنَ إليَّ أم أساءَ؟ فقال: إنْ كانَ منعَكَ حقَّكَ فقدْ أساءَ، وإنْ كانَ منَعَك فضْلَهُ فهوَ يؤتي فضْلَهُ مَن يشاءُ. فقالَ الحاضرونَ: واللهِ ليسَ عنْ هذا جوابٌ، فكأنما أُلقِمَ حجرًا. فأيهما أُخزي؟ مَن كانَ يقولُ بالباطلِ فهوَ الذي يختزي، والحقُّ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ولكنْ هلِ اقتنعَ ورجعَ؟ أبدًا، لم يقتنعْ ولم يرجعْ، ولكنه عَجزَ عن الجوابِ فسكتَ.

فالمقصودُ أنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ الإنسانَ، وخلقَ فيهِ الفِكْرَ، وخلقَ فيه اليدينِ للبطشِ، والرِّجْلينِ للمشي، والعينينِ للبصرِ، وغيرَ ذلكَ، ثم خلقَ فيه قُدرةً على الفعلِ الذي يفعلُهُ واختيارًا، وقيلَ له: أنتَ تؤمرُ بالشيءِ الذي تستطيعهُ، ولا يختلفُ الناسُ في هذا؛ فكلُّ الأوامرِ التي تأتي هي بالنسبةِ للناسِ سواءٌ، فهم يستطيعونَ وأنتَ تستطيعُ، ولكن الاختيارُ إليكَ، وأُعلمتَ بالنتائجِ؛ أنَّ مَن أطاعَ واتَّبَعَ الأمرَ واجتنبَ النهيَ أنه

.....

يُكرَمُ ويُجزى الجزاءَ الأوفى، ومَن أبى وعصى فله العذابُ، والأمرُ إليكَ، فلهذا صارَ الجزاءُ موافقًا للعملِ، فإذا عمِلَ صالحًا جوزيَ بهِ، وإذا أساءَ جوزيَ بإساءتِهِ. وهذا ظاهرٌ في جميعِ شؤونِ الإنسانِ والأمورِ التي هي امتثالًا لأمرِ اللهِ أو الأمورِ التي تكونُ بينَهُ وبينَ الآخرينَ، فلا بد من مساءلةِ الإنسانِ على فعله، أن يكونَ مسؤولًا عن فعلهِ، وإلا فسدتِ الأحوالُ كلُّها، أما أن يقولَ الإنسانُ: أنا أفعلُ ما أريدُ، فلا يجوز.

ولهذا يقولُ بعضُ الناسِ: هلِ الإنسانُ مُسَيَّرٌ أم مُخَيَّرٌ؟ نقولُ: لا مُسيرٌ ولا مخيرٌ، الإنسان عبدٌ، وهو أيضًا تجري عليهِ أحكامُ اللهِ وأقدارُهُ، ولكنْ يجبُ أن يفعلَ الأمرَ ولو لم يكنْ على ما يشتهي ويريد، وينتهيَ عمَّا نُهيَ عنهُ وإنْ كانَ يريدُهُ ويشتهيهِ؛ لأنهُ عبدٌ، والعبدُ يجبُ أن يأتمِرَ لأمرِ اللهِ، ومِنْ رحمةِ اللهِ أنهُ لَمْ يُكَلِّفْهُ إلا بالشيءِ الذي يستطيعهُ، بل أقلَّ مما يستطيعهُ، ولا يُكلِّفُ اللهُ نفسًا إلا وُسْعَهَا، فالإنسانُ يستطيعُ أكثرَ مما أُمِرَ بهِ. فمثلًا أُمِرَ بأنْ يعبد اللهَ وحدَهُ، وهذا سهلٌ وميسورٌ، ونُهِيَ أنْ تكونَ العبادةُ لغيرِهِ، هلْ هذا يَعجِزُ عنهُ الإنسانُ؟ لا أحدَ يَعْجِزُ عنهُ، ولكنها التصوراتُ والأمورُ التي تَعْرِضُ لهُ، وقد يكونُ الجهلَ وهوَ أعمُّ وأشملُ، وكذلكَ البيئةُ التي يعيشُ فيها ويشاهِدُ أعمالَ الناسِ قد تقودُهُ إلى شيءٍ يرى أنه لا يجوزُ فيفعلُهُ، وقد لا يعرفُ أنه لا يجوزُ فيفعلَهُ.

لكنِ المقصودُ أن يفعلَ الشيءَ الذي بمقدورِهِ ويترُكَ الشيءَ الذي ليسَ بمقدورِهِ فعله، والتركُ أمْرُهُ سهلٌ، ولكن الفعلُ، على هذا نقولُ: إن الإنسانَ جُعِلَ إليهِ الاختيارُ، والاختيارُ والقدرةُ مخلوقتانِ للهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] يُستدلُّ به على هذا؟

.....

يستدلُّ بها القدريةُ، ويستدلُّ بها أهلُ السُّنَّةِ، يتنازعونَ فيها، فما هو وجهُ استدلالِ القدريةِ فيها؟ الآيةُ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ مجبورٌ؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

لا، القدرية، ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ما مصدريةٌ أم موصولة؟ وما الفرقُ؟

فإذا كانتْ موصولةً، فيكونُ دليلًا على أنَّ العملَ مخلوقٌ.

الذينَ يعملونَ حجرًا أو خشبًا أو طينًا، هل هُمْ خلقوه أم لم يخلقوه؟ خلقكم والذي تعملونَ، هم خلقوا الحجرَ أوِ الخشبَ أو الطينَ؟ ما خلقوه، فهذا وجهُ استدلالِهم، يقولُ: خلَقكم وخلقَ الشيءَ الذي تعبدونه، ومعنى ذلكَ أنه لا دَخْلَ للعبدِ في فعلِهِ، هذا وجهُ استدلالِهم.

وأهلُ السُّنَّةِ يقولون: إنها مصدريةٌ؛ يعني خلَقَكم وخلقَ عمَلَكم. ولكنْ حتى وإنْ كانت موصولةً فليسَ فيها دليلٌ للجبرية:

أولًا: من ناحيةِ العمومِ والإجمالِ: أنَّ الحقَّ كتابَ اللهِ لا يدلُّ على الباطلِ أبدًا، وإنْ كانَ هذا لَيسَ ظاهرًا في الآيةِ، لكن هذا في الجملةِ.

والثاني: قولُهم: خلَقَكُم والذي تعملونَ، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، واختيارُ ابنِ تيميةَ وغيرهم أنها موصولةٌ وليستْ مصدريةً، ويكون المعنى أنه خلَقَكم وخلَقَ الذي تعملونَهُ، وعملُكم مضافٌ إليكم وإن كانَ الأصلُ مخلوقًا، ولكنْ جَعْلُ الخشبِ صنمًا، وجعْلُ الطينِ صنمًا، وجعْلُ الحجَرِ ونَحْتُهُ صنمًا، هذا عملُهم، وعملُهم مخلوقٌ للهِ ﷻ؛ لأنَّ اللهَ خلَق أيديَهُم وخلَقَ أفكارَهم، فالذي يصنعونَهُ بفكرِهِم وأيديهم فهو مخلوقٌ، وإذا كانَ الذي يُصنَعُ به مخلوقًا فالعملُ مخلوقٌ، وإن كانَ مضافًا إليهم لأنهم اختاروهُ، فتصبح ليس فيها دليلٌ.

والدليلُ على أنَّ فعلَ العبدِ باختيارِهِ وقدرتِهِ أمورٌ:

الأولُ: قولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]. فأثبتَ للعبدِ إتيانًا بمشيئتِهِ وإعدادًا بإرادتِهِ.

فما الفرقُ بين الصنَمِ والوثَنِ؟

إذا جُعِلَ على صورةِ إنسانٍ أو حيوانٍ كان صنمًا، وإذا كانَ شجرةً وحجرًا أو قبرًا فهو وثنٌ. هذا هو قولُ أهلِ اللغةِ، وهو الصحيح.

فالمقصودُ أنَّ اللهَ ﷻ خلَقَ الإنسانَ وخلَقَ عملَهُ، وإنْ كانَ قد يخفى على بعضِ أهلِ الباطلِ الذين يرونَ أنَّ أفكارَهُم تُقَدَّمُ على أمْرِ اللهِ، ولكنْ إذا كانَ الفكرُ صحيحًا ولا يخالِفُ الحقَّ فأفعالُ العبادِ مخلوقةٌ للهِ ﷻ، فهي داخلةٌ في قولِهِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وهي دالةٌ على أفعالٍ كثيرةٍ.

أما استدلالُ الشيخِ بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ هذا جزئيةٌ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [النساء: ١٣٦] وهذا كثيرٌ جدًّا، تُوجَّهُ إليهم الأعمالُ لأنهم هم الذين يفعلونَ الشيءَ، فإذا كفرَ الإنسانُ كفرَ بخيارِهِ ومقدورِهِ، كما أنه إذا أكلَ أكلَ بقدرتِهِ واختيارِهِ، وإذا جلسَ فكذلكَ.

ثم إنَّ الأفعالَ التي يفعلُها قُدِّرتْ عليهِ، فهو يفعلُها على وفْقِ ما سبَقَ، ولا اختلافَ في هذا؛ يعني يفعلُها باختيارِهِ، فنحنُ في هذا المجلسِ كُتِبَ علينا قبلَ وجودنا أنَّنا نجتمعُ بهذا، ونحنُ جئنا إلى هذا المكانِ لمْ يُرغمنا أحدٌ على هذا الشيء، جئنا باختيارنا وبقدرتنا، الشيءُ الذي أعطانا اللهُ ﷻ التمكُّنَ منه المشيُ أو الركوبُ أو غيرُ ذلك وهو مقدَّرٌ ومكتوبٌ في الأزلِ، ولا نجدُ أنَّ أحدًا يُرغمنا على هذا، وهكذا

الثاني: توجيهُ الأمرِ والنهيِ إلى العبدِ، ولو لم يكنْ له اختيارٌ وقدرةٌ لكانَ توجيهُ ذلكَ إليهِ منَ التكليفِ بما لا يطاقُ، وهو أمرٌ تأباهُ حكمةُ اللهِ تعالى ورحمتُهُ وخبرُهُ الصادقُ في قولِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

جميعُ الأعمالِ على هذا النحوِ، فاللهُ جعَلَ للإنسانِ الاختيارَ والقدرةَ، يفعلُ الشيءَ الذي قدَّرهُ اللهُ عليه، ولهذا لمَّا قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ الإنسانَ مجبورٌ واللهُ يتعالى ويتقدَّسُ أنْ يُجْبِرَ أحدًا، فهو يخلقُ الاختيارَ والقدرةَ أن يُفعلَ الشيءُ الذي قدَّرَه ولا يُجبِر أحدًا.

الفقهاءُ يقولونَ: الأبُ لهُ أن يُجبِرَ ابنتَهُ الصغيرةَ على الزواجِ إذا كانَ الأصلحَ لها، لا بد أن يكونَ الأصلحُ لها ما اختارَهُ هو؛ لأنها في صِغَرِها قد لا تعرفُ الاختيارَ المختارَ لها، ثم يختلفونَ في هذا، هل هذا إليهِ أم ليسَ إليه؟ فالمقصودُ أنَّ الأدلةَ على هذا كثيرةٌ؛ ولهذا انفصلَ منهم طائفةٌ قابلتهم تمامًا بالأفكارِ؛ يعني القدرية، صاروا طائفتينِ: طائفةٌ تقولُ: الإنسانُ حرٌّ، هو الذي يكفرُ ويؤمنُ وليس في ذلك للهِ دَخْلٌ؛ لئلا يكونَ وقعَ في الظلمِ، وطائفةٌ أخرى تقولُ: لا، الإنسانُ كالآلةِ، ليسَ لهُ اختيارٌ، فهو مرغمٌ على ما يفعلُهُ، وكلا القولينِ باطلٌ وكلٌّ يجدُ من نفسِهِ أنه لا يُرغم على فعلِهِ، بل يفعل ما يفعله مختارًا، وهذا أسوأُ من القولِ الأولِ، وهذا لا يستقيمُ عليه لا دنيا ولا آخرة.

قوله: «**توجيهُ الأمرِ والنهيِ إلى العبدِ**» أما أن يوجَّهَ إليهِ الأمرُ والنهيُ فهل هذا يكونُ دليلًا، الأمرُ والنهيُ موجَّهٌ إلى الأرضِ وإلى السمواتِ وإلى غيرِها منَ اللهِ ﷻ، فإذا أرادَ الشيءَ قالَ لهُ: كُنْ، فيكونُ، واللهُ ﷻ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ولكنِ المقصودُ بتوجيهِ الأمرِ والنهيِ أنْ يكونَ لمَنْ يستطيعُ أنْ يفعلَ

الثالثُ: مدحُ المحسنِ على إحسانِهِ، وذمُّ المسيءِ على إساءتِهِ، وإثابةُ كلٍّ منهما بما يستحقُّ، ولولا أنَّ الفعلَ يقعُ بإرادةِ العبدِ واختيارِهِ لكانَ مدحُ المحسنِ عبثًا، وعقوبةُ المسيءِ ظُلمًا، واللهُ تعالى منزَّهٌ عن العبثِ والظلمِ.

باختيارِهِ ويتركَ باختيارِهِ، فلا يوجَّهُ إليهِ الأمرُ والنهيُ إلا إذا كانَ له اختيارٌ وله قدرةٌ.

وأما «**مدحُ المحسنِ على إحسانِهِ وذمُّ المسيءِ على إساءتِهِ**» نعم إنه يُمدحُ على فعلِهِ، لا يُمدحُ على شيءٍ لا يستطيعه، هل يجوزُ أن نمدحَ الإنسانَ على أنه طويلٌ أو أنهُ كبيرٌ أو أنه صغيرٌ؟ هذا لا اختيارَ له فيهِ، وإنْ كانَ هذا أيضًا يكونُ داخلًا في كونِهِ حسنًا، نقول: إنه حسنُ الوجهِ وجميلٌ، هذا ليسَ بمقدورِهِ، هذا مِنَ اللهِ ﷻ، وإذا مثلًا ذُمَّ على هذا، فالذمُّ لا يعودُ إليهِ، كأنْ يُذَمَّ الإنسانُ على أنَّ يدَهُ قصيرةٌ أو رِجْلَهُ أو فمَهُ طويلٌ أو قصيرٌ أو عينيه صغيرتان أو ما أشبهَ ذلكَ، فهذا مما لا دخلَ له في هذا ولا لأمِّهِ ولا لأبيه، هذا إلى اللهِ، ولهذا فالذي يذمُّ الشيءَ من هذا القبيلِ يكونُ عائدًا إلى الفاعلِ.

هل ممكنٌ أن يأتينا إنسانٌ عاقلٌ ينظرُ إلى أسطوانةٍ فيقولُ هذه مائلةٌ، كسرَ اللهُ رأسَها وقطعَ يدَها، ويقعد يسبُّ هذهِ الأسطوانةَ؟ نقولُ: هذا مجنونٌ، وهو بذلك يسبُّ الفاعلَ الذي بناها؛ لأنها عمله.

ولهذا جاءَ أنَّ سبَّ الريحِ سبٌّ للهِ، وكذلكَ الزمنُ، ابنُ آدمَ يؤذي الله؛ يسبُّ الدهرَ واللهُ هوَ الدهرُ؛ يعني يُقلِّبُ ليلَهُ ونهارَهُ.

فالمقصودُ أنَّ الذمَّ للفعلِ الذي يَفعلُهُ بالاختيارِ هذا يحتاجُ أن يُثبِتَ أنَّ الإحسانَ يُفعلُ بالاختيارِ والإساءةَ تُفعلُ بالاختيارِ، ثم يكونُ الدليلُ بعد ذلكَ إذا أُثبِتَ.

الرابعُ: أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ الرسلَ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥]. ولولا أنَّ فعلَ العبدِ يقعُ بإرادتِهِ واختيارِهِ، ما بَطَلتْ حُجَّتُهُ بإرسالِ الرسلِ.

الخامسُ: أنَّ كلَّ فاعلٍ يُحِسُّ أنه يفعلُ الشيءَ أو يتركُهُ بدونِ أيِّ شعورٍ بإكراهٍ، فهو يقومُ ويقعدُ، ويدخلُ ويخرجُ ويسافرُ ويقيمُ، بمحضِ إرادتِهِ، ولا يشعرُ بأنَّ أحدًا يُكرِهُهُ على ذلكَ، بل يفرِّقُ تفريقًا واقعيًّا بينَ أنْ يفعلَ الشيءَ باختيارِهِ، وبينَ أن يُكرِهَهُ عليهِ مُكْرِهٌ. وكذلكَ فرَّقَ الشرعُ بينهما تفريقًا حكيمًا، فلم يؤاخذِ الفاعلَ بما فعلَهُ مُكرهًا عليهِ فيما يتعلقُ بحقِّ اللهِ تعالى.

وقولُهُ: «**الرابعُ: أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ الرسلَ** ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾» هذا بكلام اللهِ ﷻ لأنهم إذا كانوا بشَّروهم بالخيرِ والهدى فمعناه أنهم يستطيعونَ فِعْلَهُ، لماذا يهتدي هذا ولا يهتدي هذا؟ فقطْ بالاختيارِ، هذا اختارَ الهدى بتوفيقِ اللهِ ﷻ، وهذا لم يوفقه اللهُ فاختار خلافَهُ، فالمهتدي أُضيف إليهِ فعلُهُ الذي فعلَه من الهدى، فاستحقَّ على ذلكَ الثوابَ، والذي أساءَ هو فَعَلَهُ وعَمِلَهُ فاستحقَّ العقابَ، وهذا معنى البشارةِ والنذارةِ، كلُّ عاقلٍ يُحِسُّ أنه سيفعلُ الشيءَ بمقدورِهِ، هذا عائدٌ على ما سبقَ.

ونرى أنْ لا حجةَ للعاصي على معصيتِهِ بقدرِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ العاصيَ يُقْدِمُ على المعصيةِ باختيارِهِ، من غيرِ أن يعلمَ أنَّ اللهَ تعالى قدَّرها عليه، إذ لا يعلمُ أحدٌ قَدَرَ اللهِ تعالى إلا بعدَ وقوعِ مقدورِهِ، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]. فكيفَ يصحُّ الاحتجاجُ بحجةٍ لا يعلمُها المحتجُّ بها حينَ إقدامِهِ على ما اعتذرَ بها عنه! وقد أبطلَ اللهُ تعالى هذه الحجةَ بقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ونقولُ للعاصي المحتجِّ بالقدَرِ: لماذا لم تُقْدِمْ على الطاعةِ مُقدِّرًا أنَّ اللهَ تعالى قد كَتَبَها لكَ، فإنهُ لا فرقَ بينها وبينَ المعصيةِ في الجهلِ بالمقدورِ قبلَ صدورِ الفعلِ منكَ؟ ولهذا لمَّا أخبرَ النبيُّ ﷺ الصحابةَ بأنَّ كلَّ واحدٍ قد كُتِبَ مقعدُهُ من الجنةِ ومقعدُهُ من النارِ، قالوا: أفلا نَتَّكِلُ وندَعُ العملَ؟ قالَ: «لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(١).

ونقولُ للعاصي المحتجِّ بالقدَرِ: لو كنتَ تريدُ السفرَ لمكةَ، وكانَ لها طريقانِ، أخبرَكَ الصادقُ أنَّ أحدَهما مَخُوفٌ صعبٌ، والثاني آمِنٌ سَهْلٌ، فإنكَ ستسلُكُ الثانيَ، ولا يمكنُ أن تسلُكَ الأولَ وتقولَ: إنهُ مقدَّرٌ عليَّ، ولو فعلتَ لَعَدَّكَ الناسُ في قسمِ المجانينَ.

ثم يقولُ: «**ونرى أنْ لا حُجَّةَ للعاصي على معصيتِهِ بقدَرِ اللهِ تعالى**» الأحسنُ أنْ يقولَ: ولا نرى حجَّةً للعاصي على معصيتِهِ، أما إذا قلنا: وَنَرَى، ففيهِ شيءٌ من الضعفِ بأن نجعلَ للرأي والنظرِ مجالًا في هذا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

ونقولُ له أيضًا: لو عُرِضَ عليكَ وظيفتانِ، إحداهما ذاتُ مُرَتَّبٍ أكثرَ، فإنكَ سوفَ تعملُ فيها دونَ الناقصةِ، فكيفَ تختارُ لنفسِكَ في عملِ الآخرةِ ما هو الأدنى، ثمَّ تحتجُّ بالقدرِ؟!

وهو ليسَ له محل فيه، فالعاصي إذا احتجَّ بالقدرِ فهو مبطلٌ ويريد أنه يبرِّرَ فعله، ولو قُدِّرَ عليه هذا فلن يَدرِي به حتى يقعَ؛ فهو مأمورٌ ألا يعصي، وقد أوقعَ المعصيةَ بإرادتِهِ وبمقدورِهِ، فلماذا لم يتركها ويجعل بدلها طاعةً لولا أنه هو الذي يختارُ، فهو الذي يريدُ هذا الشيءَ؟

ولكن كما سبق، المصيبةُ ليستِ المعصيةَ، فالمعصيةُ لا يجوزُ أن يُحتجَّ عليها بالقدرِ أصلًا، لماذا؟

لأن المعصيةُ لها مخرجٌ وهو التوبةُ، لا أن يقولَ: هذا مُقَدَّرٌ ولا حيلةَ، نقول: لكَ حيلةٌ، تُبْ وارجعْ إلى الله واستغفِرْ؛ فمَن تابَ كمَن لم يقع في شيءٍ، أما المصيبةُ فهي أن يُحتجَّ عليها بالقدَرِ؛ مثلًا انقلبتِ السيارةُ وانكسرتْ يدُهُ وما أشبهَ ذلكَ، شيءٌ وقعَ، هل يمكنُ أن يُتلافى؟ فالشيءُ الذي وقع ولا يمكن أن يُتلافى هذا الذي يقالُ له قَدَرٌ، والحمدُ للهِ، مُقَدَّرٌ علينا. أما المعصيةُ كأن يتركُ الصلاةَ مثلًا، فنقولُ: عُدْ واستغفرْ ربَّكَ وصَلِّ وكأنك لم تفعلْ؛ فلهذا يقولُ العلماءُ: القدَرُ لا يُحتجُّ بهِ على المعايبِ، وإنما يُحتجُّ به على المصائبِ فقطْ؛ لأنَّ المصائبَ لا حيلةَ فيها.

وهذا هو معنى كونِ آدمَ حاجَّ موسى عليه السلام أنه قالَ: هذه مصيبةٌ وقعتْ وانتهتْ ولا تُستدرَكُ؛ فهي مُقدَّرَةٌ علينا، ونحن نؤمِنُ بقدَرِ اللهِ، والحمدُ للهِ، أما أنه يقعُ في المخالفةِ فالطريقُ فيهِ أن يتوبَ، نقولُ: إنَّ العاصيَ يجبُ عليهِ أنْ يتوبَ ويستغفرَ ويندمَ ويعلمَ أنَّ هذا فِعْلَهُ، وأنه إذا أصرَّ على فعلِهِ سوفَ يُعاقَبُ عليهِ، وهو لا يعلم هذا الشيءَ حتى يقعَ.

ونقولُ له أيضاً: نراكَ إذا أُصِبتَ بمرضٍ جسميٍّ طرقتَ بابَ كلِّ طبيبٍ لعلاجِكَ، وصبرتَ على ما ينالُكَ من ألمِ عمليةِ الجراحةِ وعلى مرارةِ الدواءِ. فلماذا لا تفعلُ مثلَ ذلك في مرضِ قلبِكَ بالمعاصي؟!

أما حجةُ المشركين الذين يقولونَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ لأنهم حرَّموا بعضَ الأشياءِ: بعضَ الأنعامِ وبعضَ الحروثِ وبعضَ الأشياءِ بالتحكُّمِ وبالخرصِ بدون علمٍ، كما قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «إذا أردتَ أن تعرِفَ جهلَ العربِ فاقرأ ما بعدَ المائةِ والثلاثينَ في سورةِ الأنعامِ من الآياتِ»، حرَّمُوا بعضَ الأنعامِ، وبعضَها حرَّموه على زوجاتهم، وبعضهم يشتركون فيه، وبعضهم يختصُّ فيه، وبعضهم حرَّموا ركوبها، وبعضهم حرموا حَلَبَها، كذلك الحرثُ جعلوه مُقَسَّمًا: قسمٌ لآلهتِهم وقسمٌ للهِ، فإذا جاءتِ الريحُ وأطارتْ شيئًا لآلهتِهم أرجعوهُ، وقالوا: الآلهةُ فقيرةٌ واللهُ غنيٌّ، وإذا جاءَ العكسُ: أطارتِ الريحُ شيئًا مما للهِ تركوه وقالوا: اللهُ غنيٌّ فتركوه كله؛ تحكُّمٌ ما لهم عليه من دليلٍ.

فهذا الذي قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هم يريدونَ بذلكَ أنْ يردُّوا دعوةَ الرسولِ ﷺ يقولونَ: أنتَ جئتنا بالنهيِ عن الشركِ، والشركُ وقعَ بمشيئةِ اللهِ، هذا دليلٌ على أنَّ اللهَ راضٍ به؛ يعني يريدونَ أنْ يعترضوا بالقدَرِ على الشرعِ، وهذا وقعَ فيهِ مَن وقَعَ من القدَرية أيضًا؛ ما استطاعوا أنْ يجمعوا بينَ القدَرِ والشرعِ فقالوا: إن الإنسانَ يفعلُ باختيارِهِ، واللهُ لا يُقَدِّرُ عليه شيئًا، كلُّ هذا ضلالٌ.

أما الأمثلةُ التي ذكرها فهي واضحةٌ أنَّ الإنسانَ له الاختيارُ، ولهُ أن يفعلَ الشيءَ الذي فيه الاحتياطُ لسلامتِهِ، ولكونِهِ يتحصلُ على الخيرِ والفضلِ بالطرقِ السليمةِ التي ليسَ فيها خطورةٌ.

ونؤمِنُ بأنَّ الشرَّ لا يُنسَبُ إلى اللهِ تعالى، لكمالِ رحمتِهِ وحكمتِهِ، قال النبيُّ ﷺ «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» رواه مسلمٌ.

فنفسُ قضاءِ اللهِ تعالى ليسَ فيهِ شرٌّ أبدًا، لأنه صادرٌ عن رحمةٍ وحكمةٍ، وإنما يكونُ الشرُّ في مقتضياتِهِ، لقولِ النبيِّ ﷺ في دعاءِ القنوتِ الذي علَّمَهُ الحسَنَ رضي الله عنه: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»، فأضافَ الشرَّ إلى ما قضاهُ. ومع هذا فإنَّ الشرَّ في المقتضياتِ ليس شرًّا خالصًا محضًا، بل هو شرٌّ في محلِّهِ من وجهٍ، خيرٌ من وجهٍ، أو شرٌّ في محلِّهِ، خيرٌ في محلٍّ آخرَ، فالفسادُ في الأرضِ من الجدبِ والمرضِ والفقرِ والخوفِ شرٌّ، لكنَّهُ خيرٌ في محلٍّ آخرَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

أما قوله: «**ونؤمنُ بأن الشرَّ لا يُنْسَبُ إلى اللهِ تعالى**» هذا أيضًا من الأمورِ التي فُهِمَتْ من النصوصِ وعُلِمَتْ، والشرُّ لا يُنسَبُ إلى اللهِ ولا يفعلُهُ اللهُ، فِعْلُ اللهِ كلُّهُ خيرٌ؛ ولهذا يقول رسولُهُ ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» في تهجُّدِهِ، إذا قامَ في الليلِ يتهجَّدُ، ومن تهجُّدِهِ قولُهُ هذا إلى أن قالَ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» إلى آخرِهِ؛ يعني ليسَ إليكَ لا خلقًا ولا نسبةً، فخلقُهُ كلُّهُ خيرٌ.

قد يقولُ قائلٌ: إبليسُ أليسَ مخلوقًا، وهو شرٌّ؟

نقولُ: لو لم يُخلَقْ لما عَرَفْنَا الخيرَ، ولا عرفنا الجهادَ في سبيلِ اللهِ؛ فهو خيرٌ بالنسبةِ لخلقِ اللهِ، وكذلك الشرورُ الأخرى، وبعضهم يمثِّلُ بالحياتِ والعقاربِ وما أشبهَ ذلكَ، نقولُ: هذهِ وإنْ لم نَعْرِفْ بأعيانها شراً، فنعتقدُ أنها ما تُخلق إلا لخيرٍ، كلُّ شيءٍ يفعلُهُ اللهُ فيها من الآياتِ، ونموذجُ العذابِ الذي يكونُ في النارِ وغيرها، النارُ فيها حياتٌ

وقطعُ يدِ السارقِ ورجمُ الزاني شرٌّ بالنسبةِ للسارقِ والزاني في قطعِ يدِ السارقِ وإزهاقِ النفسِ، لكنه خيرٌ لهما من وجهٍ آخرَ، حيثُ يكونُ كفارةً لهما، فلا يُجمعُ لهما بينَ عقوبتَي الدنيا والآخرةِ، وهو أيضًا خيرٌ في محلٍّ آخرَ، حيثُ إنَّ فيه حمايةَ الأموالِ والأعراضِ والأنسابِ.

وعقاربُ ولو لم يكنْ فيها إلا هذا لكفى، وسبقَ أنَّ هذا يكونُ على ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأول: إما أن يحذف فاعلُهُ كما قالَ أهلُ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠] الرَّشَدُ أضافوه إلى اللهِ وهذا من الأدبِ.

الثاني: أن يدخُلَ في العمومِ «اللهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ» ولا يجوزُ أن يقولَ الإنسانُ: إنَّ اللهَ خالقُ الشرِّ، لا يجوزُ هذا، اللهُ لا يخلقُ إلا الخيرَ بالنسبة إليهِ؛ فمعنى ذلكَ أنَّ الشرَّ يكونُ نسبيًّا؛ فمثلًا الرياحُ لو أنها سكنتْ لماتَ الناسُ، ولكنها قد تكونُ شديدةً، فكونُها شديدةً تنفعُ في أشياءَ كثيرةٍ، ولو ضرَّتْ في بعضِ الأشياءِ، والمطرُ قد يضرُّ بعضَ الناسِ؛ فقد يُغرق بعضَ الناسِ، ولكنه خيرٌ عامٌّ للأرضِ والبهائمِ والحيواناتِ والناسِ وغيرِهم، فكونُ الشيءِ يكونُ فيه شيءٌ من الضررِ لا يدلُّ على أنهُ شرٌّ محض، قد ينالُ بعضَ الناسِ الضررُ لكنه ليسَ شرًّا، بل هو خيرٌ.

والأمرُ الثالثُ: أنه يُضافُ إلى المخلوقِ، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق: ١٢]، كما جاءَ في استعاذاتِ النبيِّ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقْتَ» كلُّ هذا.

أما «**قطعُ يدِ السارقِ**..» وغيرِها، فهذا عقابٌ له، وهذا العقابُ فيهِ

.....

مصلحةٌ للخلقِ بأن تُمنعَ الخيانةُ، وهذا شيءٌ ظاهرٌ جدًّا، فإذا أُقيمتِ الحدودُ امتنعَ الناسُ من التعدي، وإذا تُركتْ صارتِ الفوضى وصارَ الشرُّ كما هو الواقعُ الآنَ في بلادِ الكفرِ الذينَ يطبقونَ القوانينَ، فالإحصاءاتُ الآنَ أمورٌ هائلةٌ جدًّا: في كلِّ دقيقةٍ وثانيةٍ تُعملُ جريمةٌ؛ إما جريمةٌ خُلقيةٌ أو جريمةُ قتلٍ أو سرقةٍ، والمجتمعاتُ الإسلاميةُ إذا طُبقتْ فيها الحدودُ فلن تجِدَ فيها هذا الشيء؛ لهذا أخبرَنَا ربُّنا ﷻ أنَّ القصاصَ فيه حياةٌ لنا.

لما تولَّى عمرُ ﷺ عيَّنَ عليًّا ﷺ قاضيًا، فبقيَ أكثرَ من سنةٍ لم تأتِهِ قضيةٌ، فما السببُ؟ الامتثالُ للهِ ﷻ والخوفُ منَ اللهِ، ومَن لم يَخَفِ امتنع بالحدودِ.

فعلى كلِّ حالٍ؛ تكونُ إقامةُ الحدودِ خيرًا له، وإنْ كانَ في هذا من ناحيةِ العمومِ ومن ناحيةِ الخصوص؛ فنفسُ الشخص الذي يُقام عليهِ فهو خيرٌ له؛ فإذا وقع في شيءٍ من هذا فالقصاصُ خيرٌ له؛ لأنهُ كفارةٌ له، وإذا لم يُفعل به هذا فسوفَ يعاقَبُ في الآخرةِ ويكون العقابُ أشدَّ، وهذا أمرٌ ظاهرٌ.

فصل

هذهِ العقيدةُ الساميةُ المتضمنةُ لهذهِ الأصولِ العظيمةِ تُثمرُ لمعتَقِدِها ثمراتٍ جليلةً كثيرةً؛ فالإيمانُ باللهِ تعالى وأسمائِهِ وصفاتِهِ يُثمِرُ للعبدِ محبةَ اللهِ وتعظيمَهُ الموجِبَيْنِ للقيامِ بأمرِهِ واجتنابِ نهيِهِ.

والقيامُ بأمرِ اللهِ تعالى واجتنابُ نهيِهِ يحصلُ بهما كمالُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ للفردِ والمجتمعِ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قوله: «**تثمرُ لمعتَقِدِها ثمراتٍ جليلةً كثيرةً**» يعني أنَّ هذهِ الثمرةَ لمجردِ الإيمانِ؛ فإذا آمَنَ حَصَلَ له ذلكَ، وإلا فهوَ سابقٌ لذلكَ، فالحقيقةُ أنَّ الأمرَ إلى اللهِ ﷻ، فلا يكتسبُ هذا بقوَّتِهِ وبإرادتِهِ، فمَن جعلَ اللهُ لهُ قلبًا مريدًا للخيرِ فإنهُ يكونُ بهذهِ الصفةِ، وإلا فقد يمتثلُ ولا يتأثرُ بشيءٍ من ذلكَ، ويكون امتثالُهُ في الظاهرِ فقط ليس في الباطنِ، ولكنْ إذا كانَ الامتثالُ عن اقتناعٍ وعن إيمانٍ فلا بد أن يُثمِرَ ذلكَ، وهذا أمرٌ ملازِمٌ، ليس ثمرةً تكونُ فيما بعدَ الآثارِ، بل هذا ملازمٌ للإيمانِ، وهو من أولِ وهلةٍ يحصلُ له.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الإيمانِ بالملائكةِ:

أولًا: العلمُ بعظمةِ خالِقِهم تباركَ وتعالى وقوَّتِهِ وسلطانِهِ.

ثانيًا: شكرُهُ تعالى على عنايتِهِ بعبادِهِ، حيثُ وكَّلَ بهم مِن هؤلاءِ الملائكةِ مَن يقومُ بحفظِهِم وكتابةِ أعمالِهم وغيرِ ذلكَ من مصالحِهم.

ثالثًا: محبةُ الملائكةِ على ما قاموا بهِ من عبادةِ اللهِ تعالى على الوجهِ الأكملِ واستغفارِهِم للمؤمنينَ.

قوله: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ الإيمانِ بالملائكةِ» هذا ليسَ خاصًّا بالملائكةِ، هذا يجبُ أن يكونَ في كلِّ ما أمرَ اللهُ ﷻ بهِ وأخبرَ به، كلُّ أمرٍ للهِ يجبُ أن يعلم الإنسانُ أنه خيرٌ وفضلٌ، وأن فيه ثمراتٍ سيجنيها في العاجلةِ والآجلةِ، وهذا لكلِّ مطيعٍ، ليس للملائكةِ فقطْ، لكلِّ مطيعٍ منَ الجنِّ والإنسِ والملائكة يجبُ أنْ يكونَ هكذا.

أما عظمةُ اللهِ فكثيرٌ من الناسِ لا يدركُها في خَلْقِ الملائكةِ وإنما يُدركها في المخلوقاتِ البارزةِ التي يشاهدها، مثلُ السمواتِ والأرضِ والبحارِ وغيرِها، إنما الإيمانُ بالملائكةِ يقتضي الإيمانَ بالأخبارِ؛ لأنهم غيبٌ؛ ولهذا يُقرَنون بالإيمانِ باللهِ ﷻ.

ومِنْ ثمراتِ الإيمانِ بالكتبِ:

أولًا: العلمُ برحمةِ اللهِ تعالى وعنايتِهِ بخلقِهِ، حيثُ أنزلَ لكلِّ قومٍ كتابًا يهديهِمْ بهِ.

ثانيًا: ظهورُ حكمةِ اللهِ تعالى، حيثُ شرعَ في هذهِ الكتبِ لكلِّ أمةٍ ما يناسِبُها. وكانَ خاتَمُ هذه الكتبِ القرآنَ العظيمَ، مناسبًا لجميعِ الخَلْقِ في كلِّ عصرٍ ومكانٍ إلى يومِ القيامةِ.

ثالثًا: شكرُ نعمةِ اللهِ تعالى على ذلكَ.

ومِنْ ثمراتِ الإيمانِ بالرسلِ:

أولًا: العلمُ برحمةِ اللهِ تعالى وعنايتِهِ بخلقِهِ، حيثُ أرسَلَ إليهم أولئكَ الرسلَ الكرامَ للهدايةِ والإرشادِ.

وهذا أيضًا ليسَ إلا للمؤمنِ الذي يتحقَّقُ الإيمانَ ويثبتُ في قلبِهِ ويعلمُ أنَّ إرسالَ اللهِ ﷻ للرسلِ للحاجةِ العظيمةِ التي لا ينفكونَ عنها، بل للضرورةِ، والكتابُ لمن يفهمُ ومَن يعملُ به، وإلا قد يكونُ وبالًا عليهِ، كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢] والكافرُ من بابٍ أولى، ولكنْ كلُّ مَن لم يأتمر بأمرِ القرآنِ يكونُ ظالمًا.

ولهذا يقولُ السلفُ والمفسرون في هذهِ الآيةِ: ما سَلِمَ مَن جالسَ القرآنَ: إمَّا أنْ يَغْنَمَ أو يَغْرَمَ، مَن جالسَ القرآنَ أي: يقرأُ فيهِ، فلا بد إما أنه يتحصَّلُ على الخيرِ أو أنَّ اللهَ قد يسألُه لماذا لم تعمل؟ وأبو الدرداء يقولُ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ إِذَا وَقَفْتُ عَلَى الْحِسَابِ أَنْ يُقَالَ لِي: قَدْ عَلِمْتَ فَمَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟»[1]؛ يعني كيفَ تعلمُ ولا تعملُ؟!

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف (٣٤٥٩٨).

ثانيًا: شكرُهُ تعالى على هذهِ النعمةِ الكبرى.

ثالثًا: محبةُ الرسلِ وتوقيرُهم والثناءُ عليهم بما يليقُ بهم؛ لأنهم رسلُ اللهِ تعالى وخلاصةُ عبيدِهِ، قاموا بعبادتِهِ وتبليغِ رسالتِهِ والنصحِ لعبادِهِ والصبرِ على أذاهم.

ومِن ثمراتِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ:

أولًا: الحرصُ على طاعةِ اللهِ تعالى رغبةً في ثوابِ ذلكَ اليومِ، والبُعدُ عن معصيتِهِ خوفًا من عقابِ ذلكَ اليومِ.

ثانيًا: تسليةُ المؤمنِ عما يفوتُهُ من نعيمِ الدنيا ومتاعِها بما يرجوهُ من نعيمِ الآخرةِ وثوابِها.

هذا كلُّه للمؤمنينَ.

أما «**ثمرات الإيمانِ باليومِ الآخرِ**» فهي أكثرُ من هذا، فمن ثمرةِ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ:

أولًا: أنَّا عبيدٌ يجبُ أن نَتَّبِعَ قولَ ربِّنا ونؤمنَ به، وإذا لم نفعل ذلك فقد عصينا، فالمؤمنُ يكونُ ممتثلًا لما أرادَ اللهُ منه .

ثانياً: الاحتياطُ للإنسانِ من العذابِ المتحقق، فإن لم يكن مطيعًا متبعًا له فلا بد أن يصيبَهُ العذابُ، فالإنسانُ يجبُ أن يحتاطَ لنفْسِهِ .

ثالثًا: الإيمانُ بأخبارِ اللهِ ﷻ والتحقُّقُ من أنَّ كلَّ ما أخبَرَ به سيقعُ كما قالَ ﷻ، فيُثبتُ هذا أولًا: طاعةً، ثم احتياطًا لنفسِهِ وكسبًا للحسناتِ، ثم ذكرَ النارَ وذكرَ الجنةَ، هذه للزجرِ وهذه للترغيبِ.

ففيه حثٌّ، وفيه أيضًا زجْرٌ للإنسان عن أن يفعلَ الشيءَ الذي يوجِبُ النارَ، فالثمراتُ كثيرةٌ.

ومِن ثمراتِ الإيمانِ بالقدرِ:

أولًا: الاعتمادُ على اللهِ تعالى عند فعلِ الأسبابِ؛ لأنَّ السببَ والمسبِّبَ كلاهما بقضاءِ اللهِ وقدَرِهِ.

ثانيًا: راحةُ النفسِ، وطمأنينةُ القلبِ؛ لأنَّهُ متى علِمَ أنَّ ذلكَ بقضاءِ اللهِ تعالى، وأنَّ المكروهَ كائنٌ لا محالةَ، ارتاحتِ النفسُ واطمأنَّ القلبُ، ورضيَ بقضاءِ الربِّ، فلا أحدَ أطيبُ عيشًا وأريحُ نفسًا وأقوى طمأنينةً ممن آمَنَ بالقدرِ.

ثالثًا: طردُ الإعجابِ بالنفسِ عندَ حصولِ المرادِ، لأنَّ حصولَ ذلكَ نعمةٌ مِنَ اللهِ بما قدَّرَهُ من أسبابِ الخيرِ والنجاحِ، فيشكرُ اللهَ تعالى على ذلكَ ويدعُ الإعجابَ.

قوله: «**راحةُ النفسِ، وطمأنينةُ القلبِ**» يعني هذا بعدَ وقوعِ الشيءِ، إذا وقعَ الشيءُ يعلمُ أنه لا يمكنُ ردُّهُ، ولا بد من وقوعِهِ، فإذا علِمَهُ الإنسانُ يتحسَّرُ: لو فعلتُ كذا ما كانَ كذا، ولو فعلتُ كذا ما كانَ كذا، تجدُهُ يلومُ نفسَهُ أشدَّ اللوم ويتصورُ أن بإمكانه تغييرَ هذا الواقعِ، هذا معناهُ أنه ما آمَنَ بالقدرِ، فإذا آمَنَ بالقدرِ علِمَ علمًا يقينًا أنه لا يمكنُ ردُّهُ ولا يمكنُ أن يتخلَّفَ بحالٍ من الأحوالِ.

قوله: «**طردُ الإعجابِ بالنفسِ عندَ حصولِ المرادِ**» أي إعجاب الذي يصدر منه العملَ، فالعملُ بتقديرِ اللهِ ﷻ ولكنْ باختيارِ الإنسانِ.

ولهذا يثابُ الإنسانُ على ذلكَ إذا كانَ الفعلُ موافقًا لأمرِ اللهِ، ويعاقَبُ إذا كانَ مخالفًا، ولكنِ الإنسانُ مثلًا قد يمنُّ بعملِهِ، والمنُّ يحبِطُ العملَ، فالإنسانُ قد يمنُّ على ربِّهِ، وقد يرى أنه قامَ بالواجبِ عليهِ؛ فلهذا يجبُ أن يُقفلَ الإنسانُ مداخِلَ الشيطانِ في هذا لأنَّ له مداخلَ دقيقةً.

رابعًا: طَرْدُ القلقِ والضجرِ عندَ فواتِ المرادِ أو حصولِ المكروهِ، لأنَّ ذلكَ بقضاءِ اللهِ تعالى الذي له ملكُ السماواتِ والأرضِ وهو كائنٌ لا محالةَ.

فيصبرُ على ذلكَ ويحتسبُ الأجرَ، وإلى هذا يشيرُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

قوله: «**طَرْدُ القلقِ والضجرِ عندَ فواتِ المرادِ**» يجبُ أن يؤمنَ بهذا، ويعلمَ أنه لا يمكنُ أن يتخلَّفَ، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رسول الله ﷺ، إِذْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ بَنَاتِهِ أَنَّ بِنْتًا لَهَا أَوْ صَبِيًّا لَهَا قَدِ احْتُضِرَ، فَاشْهَدْنَا، فَأَرْسَلَ يَقْرَأُ السَّلامَ، فَقَالَ: «لِلَّهِ مَا أَعْطَى، وَلَهُ مَا أَخَذَ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»[1]؛ يعني: إذا كانَ الإنسانُ بهذه الصفةِ فهوَ يعلمُ أنَّ هذا بيدِ اللهِ، وليسَ للإنسانِ تصرُّفٌ فيهِ، فعليهِ بالصبر والاحتساب؛ احتسابُ الأجرِ، وإذا لم يصبرْ فليسَ له أجرٌ.

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يعني لا تَأْسَوْا على الشيءِ الذي فاتكم، ولا تفرحوا بالشيء الذي حصَلَ لكم؛ فكله مقدَّرٌ ولا بد من حصولِهِ.

وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنَا محمدٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

فنسألُ اللهَ تعالى أن يُثَبِّتَنَا على هذهِ العقيدةِ، وأنْ يحقِّقَ لنا ثمراتِها ويزيدَنا مِنْ فضلِهِ، وألا يُزيغَ قلوبَنا بعدَ إذْ هدانا، وأن يهَبَ لنا من رحمتِهِ، إنه هو الوهابُ. والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ .

وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ.

تَمَّتْ بقلم مؤلفها
محمد الصالح العثيمين
في ٣٠ شوَّال سنةَ ١٤٠٤هـ

.....

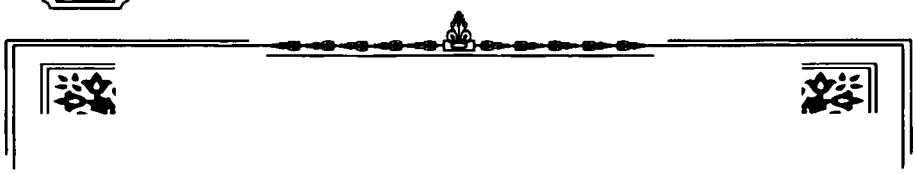

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
المقدمة	٧
الإيمان بالله	٩
الإيمان بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات	١٩
وحدانية الله تعالى	٢١
آية الكرسي	٢٢
العلم والكلام	٢٥
العلو والاستواء والمعية	٢٧
النزول إلى السماء الدنيا	٢٨
المجيء للفصل بين العباد يوم القيامة	٣١
الإرادة	٣٢
الحكمة	٣٣
المحبة والرضا، والكراهة والغضب	٣٣
صفة الوجه	٣٥
صفة اليدين	٣٥
صفة العينين	٣٦
رؤية المؤمنين ربهم	٣٩
نفي المثل عن الله تعالى	٣٩
نفي السِّنَةِ والنوم والظلم والغفلة والعجز والتعب والإعياء	٤٢
إثبات الصفات بدون تمثيل أو تكييف	٤٥

الموضوع | الصفحة

السكوت عما سكت عنه الله ورسوله ٤٧

فصل

إثبات الصفات لله ونفيها بناءً على الكتاب والسنة ٤٩
إجراء النصوص على ظاهرها ٤٩
طريقة المحرفين والمعطلين والغالين في النصوص ٥٠
لا تناقض بين النصوص ٥١

فصل

الإيمان بالملائكة ٥٣
أعمال الملائكة الموكلة إليهم ٥٥
البيت المعمور ٥٦

فصل

الإيمان بالكتب ٥٧
أنزل الله مع كل رسول كتابًا ٥٨
الكتب المعلومة ٥٩
نسخ الله القرآن جميع الكتب السابقة ٦١
وقوع التحريف في الكتب السابقة ٦٢

فصل

الإيمان بالرسل والحكمة من إرسالهم ٦٤
أول الرسل نوح، وآخرهم محمد ﷺ ٦٤
أفضل الرسل ٦٥
شريعة النبي ﷺ حاوية لفضائل الشرائع ٦٦
بشرية الرسل ٦٧
شريعة النبي ﷺ هي الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ٧١
كفر من زعم أن الله يقبل دينًا غير الإسلام ٧٤

الموضوع — الصفحة

من كفر بعموم رسالة النبي ﷺ فقد كفر بجميع الرسل ٧٤
لا نبي بعد محمد ﷺ ٧٤
الخلفاء الراشدون ٧٤
خير هذه الأمة هم الصحابة ثم التابعون ٧٦
السكوت عما جرى بين الصحابة ٧٦

فصل

الإيمان باليوم الآخر ٧٨
الإيمان بالبعث وصحائف الأعمال ٧٩
الإيمان بصحائف الأعمال ٨٢
الإيمان بالموازين ٨٦
الإيمان بالشفاعة الخاصة والعامة ٨٩
الإيمان بحوض النبي ﷺ ٩٢
الإيمان بالصراط ٩٤
الإيمان بالجنة والنار، وأنهما موجودتان، ولا تفنيان ٩٦
الشهادة بالجنة أو النار بالعين أو الوصف ١٠١
الإيمان بفتنة القبر ونعيمه وعذابه ١٠٣
لا تعارض بين الأمور الغيبية وما يشاهد في الدنيا ١٠٦

فصل

الإيمان بالقدر ١٠٧
مراتب الإيمان بالقدر ١٠٧
اختيار العبد وقدرته على العمل ١١١
الدليل على أن للعبد إرادة واختيارًا ١١٦
لا حجة للعاصي على معصيته ١٢٠
الشر لا ينسب إلى الله تعالى ١٢٣
الشر في المقضيات من وجه دون وجه ١٢٣

الموضوع	الصفحة

فصل

ثمرات الإيمان بالله ١٢٦
ثمرات الإيمان بالملائكة ١٢٧
ثمرات الإيمان بالكتب ١٢٨
ثمرات الإيمان بالرسل ١٢٨
ثمرات الإيمان باليوم الآخر ١٢٩
ثمرات الإيمان بالقدر ١٣٠
فهرس الموضوعات ١٣٣